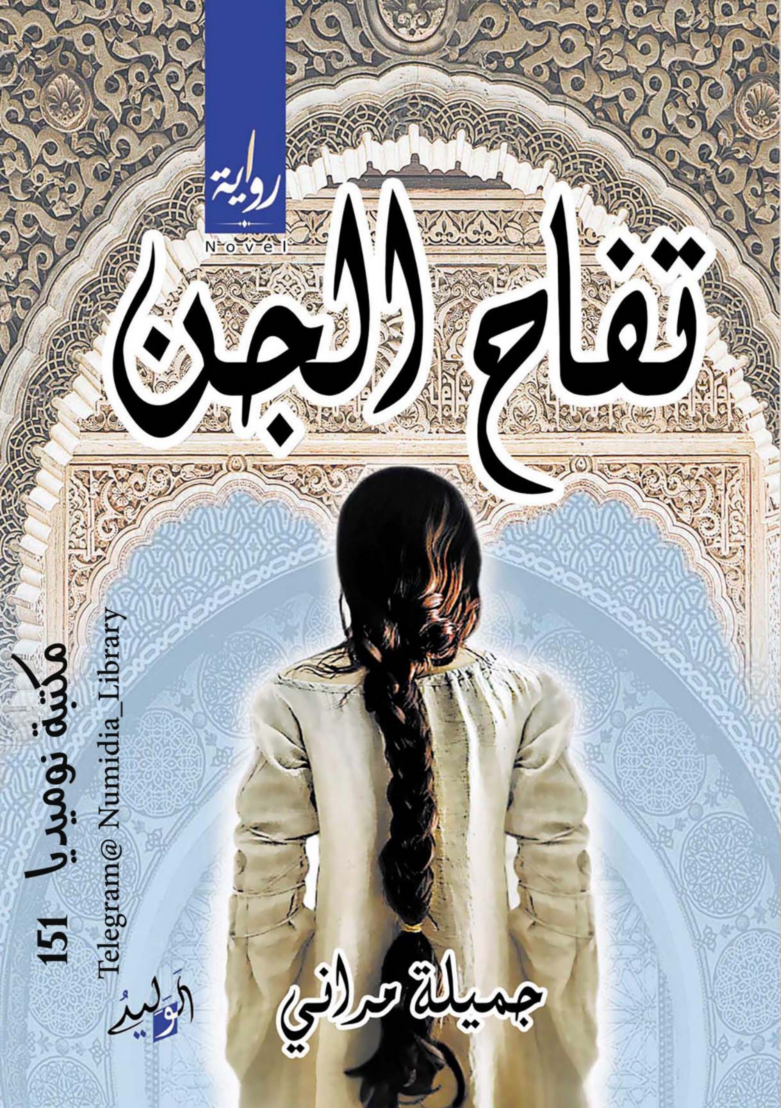

رواية
Novel
تفاح الجن
جميلة مراني
الوليد
مكتبة نوميديا
151
Telegram@Numidia_Library

جميلة مراني

تفاح الجن

"رواية للفتيان"

إهداء

إلى من أُعلِّمُهم حَرْفًا ليجتازوا امتحانًا...

أنتم تعلموني كيف أجتاز الحياة ...

إلى تلاميذي ٢٠٠٩-٢٠١٦

الجدة جميلة

إذا سُئل تفاح الجن : أيهما تريد أن تكون : دواءً أم داء ؟

ترى ماذا كان ليختار !!!

-السبت الأسود :

صراخ إخوتي ما يزال يخترق أذنيّ، رغم أنّي ضغطت بقوة بكلتا يديّ ، ما يزال صراخهم ، يملأ راسي ، حتى يكاد ينفجر ، لا أبصر شيئا في الظلام ، و القمر يتوارى خلف السحب خجلاً مما يرى و يسمع ، تحسست طريقي عبر أشجار الصفصاف ، تراءى لي وجه والدي و هو يفتح لي البوابة الخلفية للمنزل آمرًا إيّاي: (اذهبي الآن ، و سنلحق بك بعد قليل ، عليّ العودة لأحضر إخوانك و والدتك) ، دفعني خارجا و أقفل البوابة ، لكنني لم أتزحزح من مكاني ، كيف لي أن أغادر و أنا أعلم أنّه عائد إلى حتفه ؟!!!

كنّا في الغرفة، هو يدون شيئا كعادته، و أنا أنظر إلى المخطوطة الغريبة بفضول نهرني قائلا: (اتركي المخطوطة و أكملي القراءة يا ناردين)، مططت شفتي السفلى و نظرت إلى تلك الرسمة العجيبة الشبيهة بالإنسان ، كان لها أطراف أربعة تشبه الرجلين و الذراعين ، و كرة صغيرة تشبه الرأس (ما هذه يا أبي ؟ هل هذا رسم لطفل ؟) ردّ أبي بجفاء لم أعهده ، رفعت كتابي أمام وجهي أتظاهر بالقراءة بينما عيناي معلقتان بتلك المخطوطة ، لكن دوياً قويًا هزّني و أسقط الكتاب من يدي :(رجال الرشيد ... رجال الرشيد) ، دوّى اسم (الرشيد) في أرجاء المنزل الرحب ، كان ذلك الاسم يعني

الموت بالنسبة لنا ، الغريب أن الاسم نفسه كان يعني الحياة التي نحلم أن نحياها قبل بضعة أيام فقط.

مذهل ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الحياة و الموت

رفيع جدا !!!

أسرعت إلى الشرفة أطل براسي منها فرأيت رجالا يشهرون سيوفهم و يصيحون (اقتلوا الزنادقة ... اقتلوا أهل الكفر)، هيئتهم لا توحي بأنهم حرس الرشيد . التفت مذعورة إلى والدي الذي هبّ من كرسيه حالما سمع كلمة (الزنادقة) ، امسك بيدي و جرني خلفه عبر السلالم ، عيناه تمسحان الدرب أمامه، عيناي تحتضنان الذعر في عينيه ، ما الخوف؟ الخوف نظرات والدي الشاردة في تلك الليلة ، شددت على يده و تمتمت :

- أبي ....

- ....

تعثرت خطواته ، لكنه لم يتوقف، غرقت كفي الصغيرة في كفه المتعرقة، الخوف كان غولا هاربا من حكايات أمي ، يتلاشى ، و يندثر كلما قفزت في أحضان والدي هاربة منه ، لكن هذا الخوف الذي استقر في عينيه كان

أقبح من أي غول. فتح البوابة الخلفية و دفعني خارجها . حاولت فتحها مجددا لكن أبي أقفل الباب من الداخل ، وقفت عند عتبته أصغي إلى أصوات ارتطام الأجساد و الأشياء على الأرض، صراخ أخوي و أختي، الكل ينادي الكل و لا أحد يستجيب كأنهم لا يسمعون بعضهم بعضا، بكاء (بيان) القوي، استطعت تمييزه وسط زوبعة من الصخب، لطالما كان بكاؤها العالي مزعجا، لكن بكاءها في هذه المرة كان يائسًا، متعبًا رقَّ له قلبي، كان بكاء ثقيلاً ، أثقل من عمرها الغض تلك الطفلة في الخامسة من العمر. صمتتْ فجأة ، زحف الهدوء رويدًا إلى المكان و تراجعت الأصوات ، لم أسمع غير خطوات حذرة ، صلبة ، كان الموت يخطوها في الداخل يبحث – على ما يبدو - عن حياة أخرى و أخيرة ينتزعها قبل أن يغادر المكان، ارتختْ قبضتي المشدودة على المقبض واقتربتُ أصغي

- سيدي ... لقد بحثت عنها لكنني لم أجدها

ردّ عليه الموت :

- لا بدّ أن تكون هنا ابحث جيدا

تملّكني الخوف ، و تراجعت إلى الوراء خطوات فانزلقت قدمي و سقطت :

- هل يبحثون عني ؟ تساءلتُ !!!

صاح الموت :

- قلت لك ابحث عنها ...

حدقت بالباب المغلق و تخيلته يفتح، هرولت خارج الحديقة، لا ألتفت إلى شيء، خشيت أن ألتفت فيلتهمني الموت ، هرولت دونما وجهة ، قادتني قدماي إلى جامع قريب أسندت ظهري إلى جداره ، جلست ألتقط أنفاسي ، قلبي ينبض بعنف يكاد يقفز خارج صدري، نظرت إلى الحبر الذي رسم خطًا على طول يدي أشبه بالحناء ، حناء البدوية !!! تذكرت وجه تلك المرأة (عنان) المنجمة البدوية السمراء صاحبة الكف المخضّب بالحناء، التي زارت والدتي منذ أيام ، المرأة ذات الحلى الفضية ، و الوشم المتمرد على جبينها ، سرت في جسدي قشعريرة باردة لم أعلم سببها : هل هو هواء الليل البارد أم كلماتها ؟ :

- ما عادت هذه الأرض لكم ، و كل ما هو لكم سيصير عليكم ، الدم يا بني يحي سيغرقكم .

رفعت (قسمة) يدها تكتم شهقة كادت تفلت من فمها استدركت خطأها و نهضت إلى السرير تتحقق من أن (بيان) الصغيرة ما تزال تغط في نوم عميق ، لا تريد أن تسمع هذه

الطفلة ما ينتظرها ، ما ينتظر (البرامكة) في الأيام القليلة المقبلة. عادت إلى مكانها المقابل لـ (عنان) ، همست في توسل:

- يا رب ... رحماك . أردفت :

- لكن حاشية الخليفة من البرامكة قد عوقبت بالفعل، وأصدقاء زوجي قد وعدوه بأن يعملوا على حمايتنا من كل مكروه .

- لو كان الحرص يحول دون الموت ، لما مات أشدنا حرصًا يا سيدتي . و لكن الأجل غلاّب و ما بيدي آجال العباد و إنما أرسل كلامي على قدر علمي .

انقبض صدر (قسمة) ، و امتقع وجهها ، ظنّت أمي كما ظن أبي أن الاختفاء عن أنظار الخليفة الغاضب و حاشيته سيحفظ العائلة من أي شر، لم تفهم سبب تشاؤم المنجمة فنحن وإنْ كنّا من (آل برمك) إلا أننا أبعد ما نكون عن السياسة و شؤونها ، فأبي قد اختار مهنة التطبيب في البيرمستان المدرسة الطبية ببغداد ، و لم يكن كغيره من البرامكة الذين خدموا العباسيين خليفة تلو آخر ، كل ما يربطنا بتلك العائلة هو الاسم و الثروة التي ورثها أبي عن جدي ، فلما ساءت علاقة الرشيد بالبرامكة ، ضُيّق على أبي في البيرمستان حتى تخلى عن منصبه و لزم بيته، و كان كل

همه في تلك الأيام العصيبة حمايتنا من رحى غضب الخليفة التي سحقت أرواح البرامكة دون رحمة، ربما لم يأمر الخليفة بقتلهم، و لكنّه تركهم لقمة سائغة لمن يريد البطش بهم . يحاول أبي أن يهدئ خوف أمي، لكن قلبها يُنبئها بأن ما تقوله المنجمة مصير محتم، مصير يفتح ذراعيه، يناديهم، ينتظرهم، مصير كظلهم باق معهم حتى يأخذهم بين أحضانه .

كنت أسترق السمع كعادتي كلما استدعت والدتي إحدى منجماتها ، أحب الإصغاء إلى الأكاذيب التي يبرعون في نسجها ، لأقصّها على والدي بعد عودته مساءً ، لم يؤمن أبي يوما بما يقوله المنجمون : (كذب المنجمون و لو صدقوا) يقول ذلك و عيناه لا تفارقان كتابا بين يديه.لكنه لم يستطع صرف أمي عن هذه العادة التي شاعت بين النساء العباسيات، بل حتى بين الرجال ، فوصل المنجمون بلاط الملوك و الخلفاء . العجيب في الأمر أن هذه المنجمة ليست كغيرها، إنّها لا تجمّلُ نبوءاتها على بشاعتها، لا تسقي بأكاذيبها أملًا ذابلا، و إنما تلقي رؤياها كسوط صوته الهادر اشد ألماً من وقعه ، هكذا كان كلامها مرعبا حتى قبل وقوعه... نثرت أحجارها على رقعة القماش الأسود عساها ترسم الدرب ، حركت رأسها تصغي إلى شياطينها التي وصلت للتو هاربة بخبر مسروق من ملكوت السماء، ضربت الهواء بكفيها تحاول إزاحة شيء ما ، فتحت عينيها على

اتساعهما تستبصر ما أخفته حجب الغيب ، ضمت ذراعيها نحو صدرها في ابتهال :

- بحر من الظلام يغرق فيه الكل ، غضب أسود قادم.

- كيف يعقل أن نُعاقب جميعا بذنب ارتكبه رجل واحد ؟

- العائلة عقد إذا انفرط سقطت كل حباته يا بني يحي .

مسحت (قسمة) بيدها المرتجفة العرق المتصبب على وجهها، ثار الخليفة العباسي على البرامكة، البرامكة الذين ربووا الخليفة وكانوا له الوطن و المستقر، ساندوه ، و حملوا أعباء دولته، نصحوا له و دافعوا عنه، هم اليوم ألد الأعداء ، و أول الضحايا، لماذا ؟ سؤال في غير محله، للسياسة وجه جميل فاتن يغري الرجال يقعون في حبها يعبدونها، يهبونها كل شيء، لكنها امراة اسرارها أقدس من البوح ، نواياها أقبح من الإفصاح ، وُعُودُها قصر رملي يتهادى تحت ضربات أمواج غضبها ، إذا خرجتْ إليهم في كامل زينتها كان القربان أرواحهم .

صدق المنجمون و لو كذبوا . رددت بينما تراقص ظل القنديل على جدار الجامع :

- لقد صدق المنجمون يا أبي ، صدق المنجمون و لو كذبوا.

سحبت رجلي إلى صدري، أسندت راسي إلى ركبتي و بكيت ، بكيت تلك النبوءة الملعونة التي تحققت ، التي شتت عائلتنا ، سرقت هدوء أيامهم ، و ساقتهم إلى الهاوية . في تلك الأيام القليلة التي مضت انقلبت حياتنا و حياة كل بني برمك رأسا على عقب ، أيام معدودات كانت كافية لتجر الجميع إلى جحيم الموت أو الذل ، والداي قلقان علينا، يطلبان مني و من إخوتي عدم الخروج من المنزل ، حتى أن الأصحاب و الخلّان ما عادوا يترددون على منزلنا ، يخافون أعينًا ترصد تحركات العائلة و تورطهم مع الخليفة ، انسلوا واحدا تلو الآخر ، تركوا (هزير) و عائلته في مواجهة الموت .

-الله أكبر... الله أكبر

- صدح صوت آذان الفجر في المكان معلنًا بداية يوم جديد ، لماذا إذن أحس بأنني لم ابرح الأمس ، قدماي عالقتان في طينه ؟ ، لماذا لا أزال أسمع صراخهم ؟ نظرت إلى الرجال يتوافدون على المسجد ، انحنى أحدهم علي :

- ما خطبك يا صبية ؟

- رفعت بصري إليه ، تفرّست في ملامحه التي غطتها الظلال المتراقصة للقنديل بحثت عن معنى لتلك الكلمات التي

تخرج من فمه ، ارتخت جفوني من التعب ، لم أجبه ، كلماته لا تعني شيئا و كأنه يتكلم بلغة أخرى ، ردد الرجل :

- أجئت للصلاة ؟

- قفزت من مكاني و كأنّ حية لدغتني، بدا كلام الرجل غريبا (أصلي ؟ ماذا عن أولئك الذين تركتهم في المنزل ؟ هل صلوا ؟ لا يحب أبي أن نتأخر عن الصلاة ...) أسرعت باتجاه المنزل ، لاحت بفكري أمي تعض على شفتيها وتؤنبني

- انظري إلى ثيابك ، لا يليق بصبية برمكية بمثل جمالك أن تتجول بثياب متسخة كهذه .

نفضت التراب عن ثوبي و ابتسمت، لا بد أن والدتي تنتظرني في المنزل لتوبخني على إهمالي لمظهري و زينتي ، لطالما شددت على أهمية ذلك :

- أنت امرأة يا ناردين.. لن تفيدك تلك الكتب شيئا يا بنيتي ... فقط الكحل في عينيك هو ما سيقود الرجال إلى الجنون

- خلق العقل للرجال و خلق الجمال للنساء، ستضمر عيناك الجميلتان دونما فائدة فبنات البرمكي لا يدخلن المدرسة الطبية ، تقول ذلك و هي تسرح شعرها البني الطويل ليرتاح على كتفيها ، تواصل :

- التطبيب مهنة الرجال ، قد يضع الرجال أرواحهم بين يدي امرأة جميلة ، لكنهم لا يأمنون عقلها الناقص على جرح صغير تطببه .

- استدارت نحوي ، فقابلتها بوجه عبوس ، أشارت إلي بالاقتراب منها ، طوقت خصري بذراعيها و قبلتني:

لا تحزني ... وضعت خاتما فضيا عريضا في سبابتي و انحنت على كاحلي فطوقته بخلخال فضي تنتهي أطرافه بقطع نقدية لامعة :

- فقط صوت الخلخال هو ما يثبت وجودنا نحن النساء ، رنينه ينبئ بحضورنا يشد انتباه العالم إلينا، هذا العالم الذي لا يحكمه إلا الرجال .

تلكأتُ في مشيتي و انا استرجع كلامها ، نظرت إلى خاتمي ثم حركت كاحلي الأيسر فأصدر الخلخال نغمة اطمأنت لها نفسي ، إنه هنا ، بإمكاني أن أجزم بذلك وجوده يثبت أنني ما أزال في هذا العالم ، ما أزال على قيد الحياة ، أطربني صوته و أطربتني فكرة بقائي على قيد الحياة ، لا بد إذن أن الجميع هناك بخير ، لا بد أنهم أحياء ، حثثت الخطى نحو المنزل ، لكنني توقفت مرة أخرى قبل أن أصل إليه ،

(ابحث عنها جيدا) ، تملكني القلق من العودة إلى ذلك المكان ، هل كانوا يبحثون عنّي ؟.

الشمس تطل من خلف البيوت تنير الدرب الذي أسير فيه ، بدا دربا هادئا آمناً لا يشبه بأي حال درب الرعب الذي سرت فيه بالأمس هاربة . رأيت حشدا من الناس أمام المنزل فتنهدت ، لابد أنهم هنا لمساعدتنا ، تسللت بينهم أريد الوصول إلى الباب ، فقلّب أحدهم يديه و هز رأسه :

- لا حول و لا قوة إلا بالله ، حتى الأطفال لم يسلموا من القتل.

لكزه آخر بغضب :

- الزنادقة مصيرهم الموت ، من قتل مولانا (موسى بن جعفر) يستحق الموت.

- ما ذنب الأطفال ؟ رد الرجل في إشفاق

- الشيطان لا يلد إلا شيطانا .

من يقصد بالشيطان؟ أبي؟ (هزير)؟

أحسست بمغص في معدتي، تذكرت نحيب أختي (بيان) فازداد ألم المغص، تجاهلته و كافحت لاختراق الحشد

الذي وقف يشاهد نهاية هذه العائلة الزرادشتية الكافرة، مشيت نحو الباب و أنا أحاول أن أفهم كيف يتهم رجل مثل أبي بالزندقة ؟ كيف و هو من وبخني مرارا و تكرارا لأنّي أخّرت صلاة ما ، أو لم أتمم حفظ سورة ، فعاقبني بحرماني من دخول مكتبته ، ألم يشهدوا صدقاته التي سدت جوع الفقراء ؟ ألم يبصروا يده التي مدها للمرضى من الفقراء يعالجهم دون أجر ؟ (هزير) ذلك الرجل الحاذق ، المولع بالعقاقير و تراكيبها ، لم يؤذ أحداً في حياته ، فكيف يؤذونه في نفسه و عائلته و دينه ؟ كافر !!!

عُرف عن أبي (هزير) حبه للكتب فشدد علينا لقراءة كل ما نقع عليه و التعرف على كل الثقافات ، كان يعتز بأصلنا الفارسي حتى أنه سمى أولاده بأسماء فارسية أصيلة(روهان) (لاوين) (ناردين) (بيان) ، كان يقول دائما (في بغداد لا يجب أن تكون عربيا لتكون عباسيا...أنتم مسلمون مثلهم و أسماؤكم تمثل هويتكم و ليس دينكم) ، لم يكتف بهذا و حسب بل أحضر لنا المعلمين الذين نابوا عنه في تعليمنا أثناء انشغاله ، غير أنني أثرت انتباه أبي على نحو خاص ، لقوة ذاكرتي فكنت لا انسى كلمة مما قرأت، أحفظ ما يزيد عن عشرة كتب طبية و أنا لم أبلغ العاشرة من العمر ، أثار ذلك دهشة أبي كثيرا لكنه أثار خوف أمي أكثر:

- لا اريدها أن تتعلق بهذه الكتب ، انظر إليها إنها لا تأكل و لا تشرب إلا إذا استبد بها الجوع ، كل ما تفعله هو الدخول إلى المكتبة و القراءة .

- الا يجدر بك أن تفرحي ، ما تحفظه يفوق ما يحفظه أخواها ... لولا أنك تمانعين لأعددتها لدخول البيرمستان .

- حفيدة محمد بن يحي البرمكي في البيرمستان ؟ تغسل آثار الدماء و تلمس الموبوئين و المرضى ، الا يكفي الولدان ؟

- البرامكة ، البرامكة ... و الله تكاد تفتنين بهذا الاسم .

توقف أبي عن إرسال المعلم الخاص بي ، ليس خوفا من موقف جدّي و لكن خوفا عليّ ، كان يعلم أنّ حلمي كبير و ليس في هذا العالم متسع لصبية حالمة مثلي، لكن اهتمامه بي لم ينقطع يوما ، أتذكر جيدا كيف كان يرفعني بذراعيه القويتين ، و يضعني على المقعد المقابل له كل مساء ، يعلمني أسماء الأعشاب و منافع العقاقير ، أعراض المرض ، أسبابه و علاجه ، كلامه المتواصل كان يخفي إحساسه بالذنب لأنه توقف عن تعليمي ، في الحقيقة كان ذلك أفضل من دروس معلمي ، فهو لا يردّ لي سؤالا :

- أبي ، هل مات أحد يوما لأنك أخطأت في وصف الدواء ؟

توقف أبي عن سحق البذور، ورفع المسحوق بين أصابعه يتأكد من طحنه جيدا، نفض ما علق بين أصابعه، ثم قال :

- الموت ليس تقديرا بل قدرا، و مهمة الطبيب التقدير أما القدر فلرب القدر .

- لم أفهم ؟

- الطبيب يحاول و يجتهد للحفاظ على حياة المريض ، لا يعيبك يا ناردين أن يموت المريض بعد جهد بذلته ، و إنما العيب أن تقصري في بذل الجهد ...

ازداد غضبي و الرجل يكرر: (ما كان ينبغي لأحد أن يساعد في دفن هؤلاء الزنادقة) ، قفزت الدماء إلى رأسي و احمرت وجنتاي، فرحت أشق طريقي بين الناس نحو المنزل ، صحت بهم : ابتعدوا ...ابتعدوا

تعثرت برائحة عطرة خفيفة بشكل لافت استقبلتني لمّا دخلت من الباب ، رائحة أخاذة لكنها تبقى شاذة لا تناسب المنظر البشع للدم المراق الذي غطى أرجاء المنزل ، من أين للموت النتن مثل هذه الرائحة الطيبة ؟ مشيت نحو الداخل أكثر، شيء لزج تحت قدمي ، نظرت إلى البلاط فانتبهت إلى الآثار... آثار حمراء... دم من ؟ هل هذا دم (بيان) الصغيرة ؟ اضطربت و سقطت على الأرض فتلطخت يداي و ثيابي

أيضا ، فركتُ يدي محاولة إزالة بقع الدم لكن البقعة اتسعت أكثر، سالت دموعي و أنا أفكر بالاحتمالات الكثيرة التي أخذت تغزل خيوطها حولي ، تعتصرني .

سمعت صوت تكسر الزجاج في غرفة والدي فتحاملت للوصول إليها ، رأيت ثلاثة رجال يقلبون الغرفة رأسا على عقب و يسرقون كل ثمين فيها ، لكن الثمين حقا كان تحت أقدامهم، كتب والدي الطبية و مخطوطاته كانت تداس بأقدامهم ، ساءني هذا المنظر كان خادشا للحياء أن ترزخ تلك الكلمات و الأفكار تحت أقدام الجهل، تئن، تحتضر ، تتبدد دفعت أحدهم بكلتا يدي و انكفأت أنقذ آخر روح في هذا المنزل الذي يضج بالموت ، صرخت بأعلى صوتي ، كان صوتي أقوى شيء أملكه في تلك الظروف :

- اخرجوا ... اخرجوا من هنا .

انحنى أحدهم نحوي و أنا على الأرض أجمع الكتب ، حدّقَ فيّ قائلا :

- ألست ابنة (هزير) ؟

صوته ليس غريبا ، رفعت رأسي نحوه فعرفته على الفور إنه أحد غلمان (الآصفي) ، لطالما بعثه سيده إلى المنزل لأخذ الكتب التي يترجمها والدي من السريانية إلى العربية ، و كان

هو من اتهم والدي بتآمره لقتل ابن عم الرشيد ، حملقت فيه جيدا محاولة فهم سبب تواجده في المنزل في مثل هذا الظرف ، امسكني من كتفي و رفعني إليه في عنف ، لوّح بمخطوطة أمامي. للوهلة الأولى لم أميّزها فقد رأيت الكثير منها في مكتبة أبي لكن عيني اتسعتا عندما رأيت الرسم الذي يشبه الإنسان،أطراف اربعة وراس في أعلى المخطوطة شددت على ثوبي بقبضة محكمة و تذكرت شجار والديّ في اليوم الذي تلا زيارة (عنان) إلى المنزل ، كان ذلك منذ أسبوع :

كان أبي يذرع الغرفة جيئة و ذهابا ، يزيح الكتب عن مكانها ثم يعيدها مرة أخرى ، يتفقد صندوقه الخشبي المطعم بالعاج ، لابد أن شيئا ثمينا قد ضاع ،هكذا فكر كل مَنْ في المنزل ، لكن أحدًا لم يجرؤ على سؤاله ، فقد كان الغضب باديا على وجهه، وقف (روهان) و (لاوين) في منتصف الغرفة يرقبان حركاته ، بينما كنتِ أنا و(بيان) عند الباب نطل برأسينا في فضول ، يريد الجميع المساعدة لكن نجهل كيف!! و أبي لا يلفظ حرفا ، يبادر (روهان) بسؤاله :

- عم تبحث يا أبي ؟

أردف (لاوين) قائلا :

- لو أنك تخبرنا يا أبي لبحثنا جميعا عنه .

توقف (هزير) عن البحث و نظر إلى ولديه القلقين ، أدرك حجم البلبلة التي أثارتها تصرفاته ، هدأ قليلا ، ثم جلس على كرسيه ، أشار إلى الصندوق :

- هل لمس أحدكم هذا ؟

- نظر كل من (روهان) و (لاوين) إلى بعضهما البعض في حيرة ، هزّا رأسيهما نفيا ، فأخرج أبي مخطوطة :

- لقد كان بهذا الصندوق مخطوطتان واحدة باللغة العربية و الأخرى باللغة السريانية... هذه المخطوطة السريانية ، فأين المخطوطة العربية ؟

- يقترب الولدان من المخطوطة أكثر :

- لم أرها من قبل . قال أخواي

لكنني رأيتها ، لم استطع إخفاء دهشتي فهتفت :

- إنها هي ....

نظر الجميع إليّ ، اقترب مني أبي و قال :

- هل رايتها من قبل ؟

- انا .....

- تكلمي ... ناردين... بنيتي تكلمي هل رايتها من قبل ؟

- ....

- أنا من أخذت المخطوطة الثانية ، نعم لقد تخلصت منها. قالت أمي وهي تزيحني عن طريقها .

- الم أنهك عن هذا ؟ صاح أبي .

- انا أحمي ابنائي من كل هذا. لا أريد شيئا سوى سلامتهم ، بينما تهمك أنت تلك الكتب و المخطوطات اللعينة أكثر منا ... الآصفي يريد هذه المخطوطة لذلك اتهمك بالتآمر لقتل ابن عم الرشيد ، فلتعطه إيّاها ... فلتعطه كل شيء .هذا الرجل لن يتركنا وشأننا ...ليس الآن وقد أدار الرشيد ظهره للبرامكة ...

لم تتم جملتها حتى هوى على وجهها بصفعة قوية اسقطتها على الأرض . صرخت (بيان) بينما أسرعتُ إلى والدتي ، امسك (روهان) بأبي و توسل إليه :

- لا تفعل يا أبي ... أنا أرجوك

صحوت على صفعة قوية من غلام الآصفي انتزعتني من الكاري :

- أين المخطوطة العربية ؟

- ....

إنها نفس المخطوطة ، مخطوطة مكتوبة بلغة غير العربية كان أبي يحرص عليها في الأيام الأخيرة ، و يقول أنّ فيها براءته ، نعم إنها هي ، لكنني لم أجرؤ على فتح فمي ، في أخر مرة فعلت اشتعل غضب والدي ، هل سيغضب إذا أخبرت غلام الآصفي الآن ؟

أثار صمتي غضب الغلام فهوى على جسدي يرفسه، كتمت أنفاسي بينما كان الغلام يردد (أين هي ؟ أين هي ؟) أطبقت فمي حتى صار كالصخر ، على أمل أن أكتم آخر سر في جوفي، خفتت أنفاسي شيئا فشيئا ، وغرق كل شيء حولي في العتمة ، ما عادت الضربات مؤلمة و لا الشتائم مهينة ، لم أعد أحس بشيء، ولا أرى شيئا سوى كف أبي الممتدة إلي ووجهه الذي أنار العتمة...لكن بدلا من أن أمد كفي إليه ، حوّلت وجهي بعيدا و انحرفت نحو الرائحة ... رائحة الموت التي استقبلتني عند الباب ، كنت أرغب في معرفة مصدر هذه الرائحة ، وكما الحياة رغبة ، الموت رغبة أيضا ، لا يمد

أحدنا يده ليصافح الموت كرها ، نصافحه وفينا الرغبة الكافية لنتبيّن وجهه ، لنلمح قسماته، وجدت نفسي راغبة بالموت ، رائحته الزكية تغريني للاقتراب أكثر ، الاقتراب لرؤية الموت ذي الرائحة الزكية ، اقتربت أكثر منه ، لم يبدُ مخيفا ، بل بدا مألوفا ، كان يبدو ... كان يشبه ... كان وجه الآصفي ... كلا ... كان وجه الشيطان .

****

هل نمت جيدا تلك الليلة يا آصفي ؟ بعدما غسلت يديك من دم أبي وضحكته ، هل لمست أولادك بيديك الآثمتين؟ هل قبّلتهم ؟ دون قبلة أبي ... أنا لم أنم ... الأسئلة تتكالب ، تصيح في رأسي تطالبني بإطعامها ، و الأجوبة الهزيلة لا تسمن و لا تغني من جوع :

- لقد قُتلوا لأنهم زنادقة زرادشتيون

- لا ، قُتلوا لأن البرامكة لهم يد في مقتل ابن عم الرشيد

- عائلة (هزير) ؟ لكن أمير المؤمنين لم يامر بقتلهم ابداً! إنّهم بعض المتعصبين ليس إلا .

لماذا من الصعب أن يخبرني أحدهم السبب ؟ لمَ قُتلوا ؟ كيف يكون من السهل على المرء أن يقتل أحدهم ثم يصعب عليه أن يعطيه سببا واحدا يبرر فعلته ؟

مرّ يومان، الجميع حولي يظنونني غائبة عن الوعي، لكنني ببساطة لا أريد فتح عيني ، لا أريد أن أفتحهما خشية ما سأراه ، حياة خالية من أبي و أمي ، كلما أغمضت عيني رأيتهم جميعا ، لا زالوا أحياء يبتسمون لي، يلوّحون من بعيد! أبي هناك في غرفته يقرأ كتابا ما ، دائما ما يقرأ حتى بتّ أظن أن قراءة كتاب هو فرض ديني آخر يؤديه بحزم كما كان يؤدي صلواته الخمس ، ماذا أفعل إنْ فتحت عينيّ وَ لمْ

أجدهم ؟ ماذا أفعل إنْ فتحت عيني و أبصرتُ ذلك الشرخ الذي توسط جدار حياتي ، يُذكرني مع كل إشراقة شمس تسربت عبره أنّ زلزالا ما ضرب ذات ليلة عائلة (هزير) ...

الحياة بالنسبة لهزير كانت بسيطة تتلخص في كلمتين (نعم أو لا) ، رجل لا يقف في المنتصف ، لا يجرّه التيار ولا يستحي من كلمة "لا" إذا كانت الجريمة في كلمة "نعم" ذلك ما فعله هو منذ أن كان شابا عندما قال (لا) لجدي:(لا اريد أن أبقى هنا ، لا اريد أن أكون جزءا من هذا)...زوّجه جدي من إحدى بنات محمد بن يحي البرمكي ، حتى يتقرب أكثر من عائلتها ، كان والده يملك المال لكن ينقصه الصيت الذائع ، بحث لعائلته المغمورة عن مكان إلى جانب أبناء يحي داخل البلاط . كان (هزير) ولدا عاقا حينما رفض أوامره للالتحاق ببلاط الرشيد ، لكنه كان بارا بنفسه حينما قاوم ذلك الضباب الكثيف الذي علق الجميع فيه، بحق الله كيف يستطيعون العيش داخل ذلك الضباب ؟ كيف يستطيعون الرؤية والتمييز ؟ كيف يستطيعون التنفس دون أن ترتد إليهم أنفاسهم فتخنقهم ؟

لم يكن قادرا فعلا على الكذب المستمر و لا الخداع و لا حتى التملق ، دوما كان حاد المزاج ، صادقا، و فيا ، ثابتا...لا يحتاج الخليفة إلى الثبات في الرجال ، لا تحتاج السياسة إلى

ذلك ، علينا أن نتمايل دائما بما يتناسب و تغيراتها ، علينا أن نكون في منتهى اللين ، حتى لا ننكسر ، لم يستطع والدي مجاراة ما يفعله رجال آل برمك الذين تغلغلوا عميقا في جسد الدولة ، أتقنوا السياسة و ألعابها ، و أصبحوا اليوم ضحاياها . ضغط عليه جدي كثيرا ليترك العقاقير و الكتب جانبا و يتفرغ للخدمة في البلاط ، لم يخف والدي من شيء خوفه من ذلك المكان الغامض . لأنه كان ثابتا فقد خسر حياته و حياتنا جميعا .

- افتحي عينيك . صرخ صوت والدي في رأسي . فاهتز جسمي المنهك ، فتحت عيني أبحث عنه ، لكنه اختفى : هل كنت أهذي؟ حاولت الجلوس فأحسست بدبيب في أطرافي كلها ، كانت خدرة لطول استلقائي . أجلت بصري في المكان غرفة مرتبة و رائحة عبقة تلف المكان ، يبدو مألوفا ، إنّه البيرمستان ... ألم فظيع ينخر ذراعي اليسرى، أزحت الملاءة البيضاء فرأيت الجبيرة تغطيها ، حدقت بها مسترجعة كل ما حدث ، كأنه حلم ... ليته كان... ذراعي المكسورة، و الكدمات على جسدي كله ، تشهد أنه لم يكن حلما .

لا أكاد أعي ما حولي حتى أغرق في دوامة الحمى من جديد ، حرارتي مرتفعة ، وجسمي ينتفض بين الحين و الآخر

عرق غزير ينضخ مني ، كنت أعرف تلك الأعراض جيدا! أحسست بيد ناعمة باردة تلمس جبيني :

- يا إلهي لقد ارتفعت حرارتها مرة أخرى ، ماذا أفعل ؟

- حاولي مرة أخرى أيتها الآسية ... قال الرجل البدين إلى جانبها

أجلستني الآسية وحاولت أن تسقيني شيئا، لكنها لم تفلح ، فمي المطبق يرفض أي شيء ، رجتني بصوتها الرقيق أن أطيعها فاعينها على إنقاذ حياتي ، لم تعلم أنني قد تخليت عن الحياة !! توسلاتها تؤذيني و تدق رأسي المنهك بصرخات (بيان) التي لا تنقطع ، صار الألم مضاعفا سددت أذني لعلّ الألم يخف ، لكن الآسية استمرت تتوسل ، شقّت الصرخة صدري و لم أقدر على ردعها ، رميتُ الإناء فارتطم بالجدار و سال على الأرض . ارتبك الجميع و لم يحركوا ساكنا أخرستهم صرختي :

- ما الذي يحدث هنا ؟

ظهر من خلف الآسية شيخ صغير القامة ، محدودب الظهر ، لحيته الحمراء تشتعل فتزيد وجهه احتقانا ، عيناه ضيقتان ، ضيقهما أكثر و هو ينظر إليّ قائلا:

- في الغرفة المجاورة مرضى يا أميمة ، عليك أن تنتبهي .

- آسفة لكنّ الفتاة عنيدة و لا تستمع لأحد ، إنها لا تأكل و لا تشرب .

لاحظت تقوّس شفتيه ، وضع يده على لحيته فانعكس لمعان خاتمه الذهبي على صفحة وجهي، تخطى الآسية و اقترب من طاولة صغيرة إلى يميني ، حمل كأسا من اللبن و مدّها إليّ :

- عليك أن تأكلي شيئاً يا بنية .

رميت كأس اللبن ، وصرخت :

- اريد ان ارى الآصفي ... اريد ان اراه .

اتسعت عينا الشيخ و التفت إلى الآسية مستفهما فأجابته :

- إنها ابنة الطبيب (هزير) أيها المعلم إسحاق ، أنت تعلم ما حدث ...

نظر كل منّا للآخر، كان متفاجئا و كذلك كنتُ أنا! المعلم إسحاق طبيب و عالم أعشاب طبية مبجّل ، ما كتبه هذا الرجل و ألقاه في حلقات دروسه يساوي ما كتبه أطباء البيرمستان كلّهم ، لا توجد نبتة أو عقّار إلا و أجزل التفصيل فيه ، (روهان) و (لاوين) كانا لا يفوتان حلقة من حلقات

دروسه و اسمه يبقى يتردد في المنزل لأيام ، إنّه حلم كل طالب في البيرمستان فكيف لي أنْ أتصرف هكذا أمامه!!! ارتبكت وأنا أراه يستدير و يهمّ بالخروج، فأمسكت بثوبه وغمغمت :

- اريد ان ارى الآصفي ...

التفت المعلم إسحاق إليّ و أمسك بيدي قائلا :

- كيف سترينه و أنتِ لا تقوين على الوقوف حتى !!! إذا بقيت على هذه الحال فستموتين قبل أن تلتقيه ...

التفت إلى الآسية أميمة و واصل قبل أن يغادر :

- لا تعطها الدواء قبل أن تتناول حساءها كاملا .

- هل ستكون بخير ؟ أعني هل ستحرك ذراعها مجددا ؟

نظرت إلى الرجل البدين الواقف إلى جانب الآسية أستفهم عن هذا السائل ، القلق على صحتي . في مثل هذه الظروف التي نشعر فيها بالوحدة نصبح مجرد قشة عائمة تائهة نبحث عن الانتماء في وجوه من حولنا ، اعتصرت ذاكرتي أبحث له عن ذكرى، عن صلة ، لا شيء ، وجهه المنتفخ و شفتاه الغليظتان ، تقاسيمه البليدة تتماوه و لا تساعدني في تذكر

شيء ، ارحت رأسي على الوسادة و أغمضت عيني مجددا ترجاه الرجل :

- سيدي إسحاق يجب أن آخذها معي اليوم ، فالسوق أكثر حركة في هذه الفترة .

- افعل، خذها الآن إنْ شئت ، لكنني لا أكتمك شهادة ، ما رأيت إنسانا نزع جبيرته في يومين ثم استوت حركة ذراعه... وأنت لن تكسب شيئا من بيعك لجارية لا تستطيع سكب الشراب لسيدها . قال المعلم إسحاق ذلك و مسح آثار اللبن المنسكب عن يديه بخرقة في قلة اكتراث .

- لكن ذلك سيؤخرني عن بقية النخاسين ... و سيغضب زبائني ، لولا جمالها ...

- أسبوعان ، وستحصل على جاريتك ، صبية ذات عينين رماديتين و ذراع سليمة ، لن يفيدك جمالها في شيء إن بقيت ذراعها على هذه الحال .

غاب النخاس و المعلم إسحاق عن ناظري و كلماته لا تزال حاضرة : جارية ! ترسبت تلك الكلمات داخلي ، و تكثفت سارت سوداء ، السواد يملأ المكان ، ولم اعد أبصر أحدا ... جارية! سليلة البرامكة جارية! ليتك تسمعين هذا يا أماه، ابنتك

تباع في سوق النخاسين غدا فمن يخبرهم أنّ البرامكة خلقوا أسيادا للحياة يا أمي ؟

من هذا الذي سيكترث لبرمكي آخر يُباع أو يموت ؟ كأي برمكي أنا الآن ملعونة مطرودة من جنة الرشيد ، لا أدري أي إثم ارتكبت، و لا أي تفاحة محظورة قطفت ؟ ذلك سؤال سيرافقني حتى آخر نفس فيّ ، جنته التي كنت أتوق إلى دخولها - البيرمستان - كانت منتهى الغاية بالنسبة لي و لأخوي (روهان) و (لاوين) ، جنته اليوم توصد أبوابها أمامي ، كل الكتب التي قرأتها ، كل النباتات التي سهرت رفقة والدي أحفظ أسماءها و أنواعها ، كل الأحلام التي كدّستها تبخرت الآن .

مسحت العرق الذي غطى وجهي و حملت زجاجة كانت إلى جانبي (الرائحة تغنيك دائما عن التذوق) كان يقول أبي محذرا إيّاي من تذوق أي عقار قبل النظر إلى لونه و شم رائحته ، التذوق ليس خيارا بل مخاطرة قد تودي بحياة الطبيب ، داخل هذه الزجاجات الغامقة لا مجال لمعرفة اللون ، لابد لي أن أعتمد على حاسة الشم ، تفوح من الزجاجة رائحة قوية ...رائحة العوسج ...ربما ، قرّبتها أكثر من أنفي فهرعت الآسية نحوي مذعورة :

- لا ، لا تشربي هذا . صاحت بي و انتزعته من يدي .

- هذا يشبه رائحة نبتة العوسج لكنه أقوى .

- وضعت الآسية الزجاجة على الطاولة و قالت في شيء من الحيرة :

- هذا رماد العوسج و رائحته أقوى ... هل سيدك غليظ معك دائما ؟

- سيدي ؟

- الرجل الذي كان هنا قبل قليل ، قال أنك جاريته .

- لا أتذكر أنني كنت جارية أحد .

- و لكنك من البرامكة أليس كذلك ؟

- و هل صار البرامكة عبيدا ؟

جلست الآسية و أخذت تضع الرماد على القروح المتفرقة على جسدي ، ظل رأسها منكسا ، و لم تجبني ، لم أكن في حاجة لسماع الإجابة ، بغداد كلها صارت تعلم أن البرامكة لا عهد لهم و لا أمان ، ليس عليها أن تجيب .. فقط دموعي التي اختلطت بالرماد فسالت سوداء على الأرض كانت هي الإجابة.

مضى الأسبوعان سريعا لم أغادر خلالهما غرفتي و لا سريري، كل ما كنت أفعله هو النوم ، كنت أحب ذلك السكون الذي أسبح فيه سكون خال من الزمان و المكان ، أسبوعان لم يفوت فيهما (سيدي) فرصة الاطمئنان على سلعته ، كان ياتي كل صباح يقف بقلق و عصبية يرقب الآسية أميمة و هي تضع الدهن على الجروح أو تغير الجبيرة ، حتى أصبح وجوده بديهيا ، جزءا من الواقع ، لكنه انقطع عن المجيء فجأة ، و لم أره طيلة الأيام الثلاثة الماضية . سألت الآسية أميمة :

- ألَمْ تريْ النخاس اليوم ؟
- كلا
- أليس هذا غريبا ؟ لم يأت منذ مدة .
- لا بد أنه غاضب من المعلم إسحاق لأنه طلب أن يشتريك منه ...

هتفت بفرحة لا أعلم سببها :

- حقا ...هل اشتراني منه ؟

- لا ، لم يشتريك لقد رفض أن يبيعك إياه ...

ازالت الآسية الجبيرة عن ذراعي، و ضغطت على المكان ثم قالت :

- لا تحركي ذراعك بضعة أيام أخر، و ستشفى تماما بعد عشرة أيام. و الآن قفي و تمشي قليلا فأنت لم تغادري سريرك إلا لحاجة . ثم أشارت إلى النافذة :

- حتى أنك لم تخرجي إلى حديقة البيرمستان ، الهواء العليل سيفيدك ...

قالت ذلك و اتجهت نحو النافذة التي تطل على الحديقة ... مغادرة السرير كان عملا شاقا بالنسبة لي وغير وارد استلقيت و رفعت الملاءة أهرب من ثرثرتها ، واصلت :

- من بإمكانه أن يستغني عن منظر أزهار النيم !!!

همست في نفسي :

- ما الذي تقوله ؟ أشجار النيم لا تنبت إلا في ....

لم أشعر بنفسي إلا و أنا بجانب الآسية أفتش عن تلك الشجرة التي قرأت عنها ، و التي لا تنبت إلا ببلاد الهند، احسست بالحياة لأول مرة تدخل رئتي منذ أسبوعين، سحبت كل الهواء الموجود في الغرفة قبل أن أطلق صيحة تعجب

امتدت بامتداد حديقة خضراء واسعة أمام عيني، لم أر في حياتي هذا العدد الهائل منِ الأشجار و الأزهار و النباتات : صفصاف ، نيم ، يانسون ، بردقوس ، ميرمية ... وجدت نفسي أمام جنة من النباتات الطبية التي لا حصر لها بعضها اعرفه و كثيرها اجهله :

- يا إلهي ... كم هي جميلة !!! كيف لم ألحظها من قبل ؟

- لقد احضرك سيدك إلى هنا و أنت غائبة عن الوعي و ... تهذين باسم الآصفي ؟

- ....

ادركت الآسية أنني لا اتذكر كثيرا مما حدث ، فاردفت :

- عندما وصلت إلى البيرمستان ، كانت الدماء تغطي وجهك ، و ثيابك ممزقة ، ذراعك اليسرى مكسورة ، لقد كنت ميتة بالفعل ، قال النخاس بأنّ غلاماً ما باعك إياه ، هل كان غلام الآصفي ؟

شردت بأفكاري بعيدا، نخر ذلك الاسم عميقا فيّ ، وهيّج الأمس فتضاعف ألم ذراعي لكن ألمي المدفون هناك في قبورهم كان أقوى من الاحتمال ، (الآصفي) كان صديق أبي ، أخاه ، حمل إخواني على ظهره ، قطع لنا وعدا بالأمان

عندما أعلن الرشيد أنْ لا أمان للبرامكة ، لكنه انقلب عليه فجأة و صار اسمه يتردد كثيرا في كل مرة يتشاجر فيها والداي ، لو أنه بتر تلك الصداقة ببساطة و انسحب كما انسحب آخرون، وعد ابي أنه لن يخونه ، و الوعد جريمة إن لم نصنه ، و الوعد عار إن لم نحفظه . وضع كفه على كتف ابي يواسيه ، تلك الكف نفسها سفكت دمه ، و سقتني قهرا حتى الثمالة ، هل أخطأ والدي عندما وثق به ؟ الثقة خطأ والدي الأكبر ، الخيانة تنام تحت ظلال الثقة ، إنْ نحن قطعنا أغصان الثقة ، إن نحن اجتثثنا جذورها ، لم نخف تلك الخيانة التي ترقد تحتها تترصد غفوتنا ، بلا ثقة نحن محصنون .

لبست نعلي وجدّلت شعري البني ثم خرجت إلى الحديقة متلهفة ، الشمس في بغداد سافرة تخرج على الناس في غير حياء ، لكن هذا المكان بدا و كأنه قطعة من الفردوس، لطيف الجو ، طيب الهواء، أشجار بطول الممر المرصوف ، ترفع هممها عاليا تتعانق في سلام ، نباتات و أزهار من كل لون و نوع ، ضغطت بين يدي أوراق السرخس، و شممت رائحته ، يالها من خسارة أن أفقد اوراقي و أقلامي في مثل هذا المكان الذي يعج بمختلف النباتات الطبية ، بعثت تلك الكلمة أسى في قلبي ، عن أي خسارة أتحدث و عائلتي كلها تحت التراب ؟ ، أفلت تلك الأوراق و شاهدتها تهتز فرحا أنني لم أقطفها .

رأيت مجموعة من الفتية يهرولون ، كانوا في مثل سن أخويّ، حرّك الفضول رجلي، أو ربما هي العادة ، تعودت على اللحاق بـ (روهان) و (لاوين) و دس أنفي في كل ما يفعلان ، حثثت الخطى نحو قاعة كبيرة تغص برجال كثر رقابهم تشرئب نحو صوت ضعيف، لولا أن الوقت مبكر لظننت أنهم يستعدون للصلاة، كلهم صامتون، ساكنون يتحلقون حول ذلك الصوت :

-.. و لأن الزراعة أقدم المهن التي عرفها الإنسان ، كانت النباتات بمختلف أنواعها رسالة الرب لنا ، نحن من الأرض و لها ... انظروا إلى التشابه بين الأعضاء البشرية و النباتات ، و قفوا على رسائل الرب ....

عقد المعلم إسحاق إبهامه و سبابته و واصل كلامه :

- فالجوز لشفاء أمراض الرأس ، و الليمون لأمراض القلب ، و ورق التين لآلام اليدين ، و كل ما ذكرناه من نبات يشبه في شكله و تكوينه تكوين العضو إنْ نحن أمعنا النظر و الملاحظة ، و بالتالي فلكل عشبة و نبات تأثير مختلف... يجب عليك أن تنتبه فكلما اختلفت المشاهدة و النظر للمريض كلما اختلفت طريقة تحضيرك للدواء و انتقائك للعشبة. فأنت أيها الطبيب وريث هذه الصنعة ، أنت السر المقدس الذي

حفظ منذ آلاف السنين في برديات مصر القديمة ، أنت سر : اوزوريس ، إيزيس و تحوت آلهة العشب ...

كان يجلس على كرسي خشبي غاص فيه جسمه الضئيل ، و جذعه يميل إلى الأمام، وعيناه الضيقتان تجولان بين الحاضرين تتابعان وقع كلماته الساحرة على تلك الوجوه و رؤوس الناس من حوله تتابع حركاته و كلماته كدرر يخاف أن تهدر، وقعت عيناه عليّ ، فاعتدل في جلسته و أغلق الكتاب الذي بين يديه ، واصل كلامه دون أن يرفع نظراته عني :

- و قد جاء في بردية إيبرس : أطلب إليك يا إزيس أن تهبني الشفاء كما شفيت حورس ...

سكت فجأة واضعا راحة يده على جبينه و تمتم : ما كانت تقول يا إسحاق ... ما كانت تقول ؟

- ... كما شفيت حورس من كل جراحه التي أطبّه بها أخوه ست ..

انسابت الكلمات من بين شفتي دون وعي مني ، تبعثرت داخل القاعة الكبيرة وأحدثت رنينا عاليا أثار انتباه الناس . رددت تلك الجملة التي حفظتها عن ظهر قلب من كتب والدي المترجمة عن اليونانيين ، دون أن ادرك أن صوتي سمع

داخل القاعة كلها فالتفتت إليّ الأعين تبحث عمّن كدّر صفو هذه الجلسة المبجّلة ، تراجعت إلى الوراء أتفادى وخزات نظراتهم ، أطرقت رأسي تجنبا لهم ، فهز الأستاذ رأسه قائلا :

- نعم... كما شفيت حورس من كل جراحه التي أطبّه بها أخوه ست .

قال ذلك و عيناه لا تزال عليّ من بعيد ، أحسست بيد تشدني من ذراعي و تجرني خارج القاعة الكبيرة ، جررت رجلي محاولة عدم السقوط ، صاح بي أحدهم :

- ما الذي تفعلينه ؟

- عذرا، لكن الكلمات خرجت دون وعي مني ، أحفظ ما اقرؤه ، و أقول ما أحفظه .

- لا يحب المعلم إسحاق أن يقاطعه أحد ، هل تدركين صعوبة جعل هذا الرجل يتكلم ؟ هل تعرفين ؟

ما الذي يجعل من هذا الشيخ ذي اللحية الحمراء مختلفا عن غيره ، و لم من الصعب جعله يتكلم ؟ الأطباء داخل المدرسة الطبية كثر ، يتتلمذ على أيديهم عدد أكبر من طلاب العلم ، صحيح أنّه ذو شهرة و صيت لكن هذا لا يعطيه حقّ

احتكار المعرفة لنفسه ، بدأت أفواج الناس تخرج من القاعة ، مرّوا بي و هم يرمقونني بنظرات حادة ، سأل الرجلُ أحدهم :

- ماذا حدث ؟

- لقد أنهى درسه

التفت إليّ الرجل و قال :

- ألم يكن من الأفضل أن تضعي لسانك داخل فمك ؟

استدرت نحو القاعة ، فإذا بالناس تخرج متململة من مقاطعتي لحلقة الدرس ، لمحته يخرج أخيرا من القاعة يحمل كتابه بيده ، و يمسح لحيته الحمراء الطويلة بأخرى، حاولت ان أتوارى عنه لكن خطاه كانت أسرع من مشيتي الواهنة وقف أمامنا مباشرة فبادر الرجل إلى الاعتذار :

- سأعيدها إلى غرفتها حالا .

لم يعره المعلم إسحاق بالا و أشار إليّ للحاق به ، سار امامي طويلا دون أن ينبس بكلمة ، مَنْ يصدق أنني هنا مع المعلم إسحاق ؟ نظرت إلى يده كان يحمل كتابا عن الطب في عهد الفراعنة ، أعجبني الكتاب كما أعجبني خاتمه الذهبي ذو

الفص الأزرق كان خاتما غريبا كغرابة هذا الرجل ، تبعته إلى وسط الساحة الكبيرة ، جلس على أحد المقاعد، ثم سألني :

- هل أنت ابنة (هزير)؟

- نعم .

رفع حاجبيه و حدق فيّ طويلا :

- لا ينقطع العجب من هذه الدنيا ، أليس كذلك ؟

لم أفهم ما قال فسكت ، واصل :

- الآصفي كان صديق والدك .

- لا يقتل الصديق صديقه ، لقد رأيتُ غلامه يسرق كل شيء في منزلنا حتى مخطوطة والدي ...

قام المعلم من مكانه و تقدم أكثر مني :

- اية مخطوطة ؟

لم أكن متأكدة مما رأيته في تلك المخطوطة ، و لا مما سمعته من والدي حولها ، فلزمت الصمت ، أردف المعلم إسحاق :

- هل رأيت ما جاء فيها ؟

- كتبت بغير اللغة العربية هذا ما أتذكره .

- أنتِ لا تجيدين السريانية ؟

- لا ، لو انني استطيع ان أتعلمّها منك

قلت ذلك بخجل فأنا أعلم أنّ هذا الرجل لا يقبل تعليم أحد ! لطالما حلُم بذلك أخواي و لكن ابي أقنعهما أنّ المعلم إسحاق يلقي دروسا عامة لجميع الطلاب و لا يعلم أحدا على وجه الخصوص ، فكيف إذا طلبت جارية مثلي ذلك ؟ لن أنسى تلك النظرة في حياتي ، انبسطت ملامح وجهه ، و كأنه وقع على شيء أضاعه، عاد إلى مقعده و طلب مني العودة إلى غرفتي ، ركز عينيه في الأرض و عاد يمسح لحيته الحمراء الطويلة.

ها قد شفيت تماما ، جلست على سريري أنظر إلى باب الغرفة ، انتظر قدوم (سيدي) لكنه تأخر، لم يبعث هذا الأمر راحة في نفسي بل زادني توجسا ،الموت أشهى من ذلّ الحياة لو كنّا نملك حيواتنا... لكننا فقراء لا نملك الحياة و لا الموت لا نملك إلا المسيرة الطويلة و الخيارات الكثيرة قد لا تكون خيارات منصفة لكنها كل ما نملك، لقد استسلمت تماما لقدري ، لا راد لحكم الله، ما في يد فتاة في الثانية عشر أن تفعله ، كنت بالأمس ابنة الأكرمين ، و اليوم أشترى و أباع

انتصفت الظهيرة و لم يظهر النخاس ، جاءتني الآسية أميمة مسرعة تكاد تطير فرحا ، صاحت :

- المعلم إسحاق يطلبك في داره .

- ماذا عن النخاس ؟

- ألم تسمعي .... لقد مات !!!

****

كان بناء حجريا من طابقين ، باب أزرق صغير يتوسط واجهة البيت ، تساءلت في سري (كيف بإمكان إنسان أن يعبر من خلال باب صغير كهذا ؟)، في حي اليهود تتشابه أبواب المنازل فكلها ذات لون أزرق داكن و حجم صغير، أمام الباب راح الكلب ينبح حالما رآنا، لم أعتد على وجود الكلاب في بيتنا فلم يكن والدي يحب تربيتهم لذلك أفزعني صوته أول الأمر، لكن الكلب هدأ لمّا رأى سيده المعلم اسحاق.. في الطريق إلى هنا ، شرحت لي الآسية كيف أن المعلم اسحاق اشتراني من ابن النخاس الذي وُجد ميتا في غرفته ، و قالت أنه لاشك يشفق على ابنة (هزير) الوحيدة فقد كان والدي محل احترام كل من يعمل في البيرمستان ، و هذا ما دفعه على الأرجح لشرائي ، لابد أنني محظوظة لموت النخاس الجشع، و إلا كنت الآن في إحدى الأسواق معروضة لمن يدفع ثمني ، فتح المعلم اسحاق يديه مُرحبا :

- ها أنت ذا ... أهلا بك

- شكرا لك سيدي

لوّح المعلم بيده قائلا :

- انت لست جارية هنا ، و انا أحلّ محل أبيك يا بنية .

ودعتني الآسية بقبلة على جبيني وغادرت فيما قادني المعلم إسحاق نحو غرفتي ، قال مفسرا الهدوء السائد :

- أعيش وحدي بعد وفاة زوجتي و زواج ابني .

- لا بد أنك تشعر بالوحدة .

- الوحدة ؟ الوحدة ليست سيئة كما يعتقد الكثير من الناس ، إن ولادة الإنسان الحقيقية لا تكون حينما يخرج من الرحم إلى العالم و إنما حينما يخرج من العالم إلى رحم ذاته و لا يكون ذلك إلا في الوحدة.

التفت إلي يتأكد من وصول ما قاله ، فوجدني أنظر إليه بعينين مشدوهتين ، على الرغم من أن عينيه الضيقتين لا تزالان تبثان فيّ شيئا من الرهبة ، إلا أن حديثه يغري المستمع و يثبته ساكنا بلا حركة في أرض من الكلمات الساحرة ، توقف المعلم و أشار إلى يمينه في آخر البهو:

- هذه غرفتك ، ضعي حاجياتك هنا و رتبيها . قال ذلك قبل أن ينتبه إلى يديّ الفارغتين ، استدرك قائلا :

- لا بأس ، غدا تخرجين إلى السوق و تشترين ما تحتاجين . على الأرجح أنك لن تجديني في الصباح الباكر لأنني سأكون في البيرمستان .

وضع بضع قطع نقدية على الطاولة إلى جانب صينية الطعام المتواضعة ، و خرج مغلقا الباب ، كنت ممتنة لربي فهو لم يذرني وحيدة في آخر الأمر ، ارسل لي هذا الرجل الذي انتشلني من مصير محتم ، و غربة تمزق روحي المتعلقة بأنفاس بغداد ، لا شيء يملأ الصدر كهوائها ، و الأهم من كل ذلك أنني سابقى قريبة من مبتغاي (البيرمستان)

مدّت الشمس خيوطها الأولى فلامست وجهي ، كان المنزل ساكنا لا حركة فيه تذكرت ما قاله المعلم إسحاق ، لم اعتد السكون بعد، ولدت في بيت يضجّ بأصوات الحياة. أخافني ذلك الصمت ، فخرجت حاملة القطع النقدية و متوجهة للسوق ، كنت عازمة على شراء ثياب فأنا لا أملك غير ما ارتديه ، لكنني وجدت نفسي أمام دكاكين الوراقين ، لم يسبق لي أن دخلت إحداها و لكن أخوي كانا يزوران الوراقين دائما و يأتيان بما يشتهيان من الكتب ، بقيت لساعات أتنقل من ورّاق إلى آخر حتى نفد ما لدي من مال .

وقفت على بعد خطوات من المنزل ، أحيط الكتب بذراعي، و نظراتي معلقة بالباب ، الشمس تكاد تغيب وأنا هنا متسمرة لا أجرؤ على دخول البيت، انظر إلى الكلب و ينظر إليّ ، لعله يسأل ما خطبي ؟ :

- كتب !!! فاجأني المعلم إسحاق بصوته الضعيف و هو يمد عنقه من خلفي ليرى ما في يدي ، فأجبت بحماس :

- لقد باعني إيّاها الورّاق بنصف الثمن ، من الخسارة أن أعود دونها .

رفع المعلم حاجبيه عاليا ، ثم حمل الكتب و تقدمني نحو البيت دخلنا و تبعته إلى أعلى ، انتهينا إلى باب متهرئ ، أخرج المفتاح من جعبته و فتح الباب، حبست أنفاسي للحظات و أنا أرى كتبا متراصة و أخرى مكومة بشكل عشوائي يعلوها الغبار، أواني فضية من كل الأحجام ملئت بشتى الأعشاب ، زجاجات مختلفة الألوان ، هاون أبيض جميل، و مبخرة نحاسية صغيرة ، كان يملك أبي واحدة مثلها ،هتفت :

- هل هي كلها لك ؟

كدت أن أدخل إلى الغرفة لولا تلك النظرة الحادة منه التي جعلتني ألزم مكاني عند العتبة، حمل المبخرة النحاسية و وضعها بعيدا ثم قال :

- إذا احتجت كتابا فاطلبيه ، لكن لا تدخلي أبدا إلى هنا ، هل هذا مفهوم ؟

مدّ يده إلي بكتاب و قال :

- إذا أنهيته أعطيتك آخر ، لكن ... صمت للحظة ، ثم قال بصوت حازم : لكن لا تدخلي إلى هنا دون إذني، هززت راسي علامة الموافقة ، فاردف :

- نتعشى ثم تقرأينه .

لأول مرة منذ قتلت عائلتي أختلي بكتاب، انا و هو و ثالثنا السراج ، أحسست و انا ألمسه أنني ألمس كف والدي الخشنة ، كنت أمرر يدي على صفحاته قبل أن اقرأ فاشعر بكفه التي تشققت لكثرة ما لمست من أعشاب و خاطت من جروح ، غمرني حنين قاهر هزني و رجّ بحر الأحزان داخلي ففاضت عيناي ، أغلقتهما بسرعة حتى لا تنهمر دموع نذرت أن تسيل يوم أقتل الآصفي ، أمضيت تلك الليلة أقرأ و أقرأ ، عندما رددت الكتاب صباحا للمعلم إسحاق و هو يتحضر للخروج ، حدجني بنظرة شك و قال :

- قرأته كله ؟

- نعم و ... اريد آخر .

وضع عباءته جانبا و طلب مني الجلوس :

- هل كنت تقرئين كتب والدك كلها ؟

- يأتي والدي ببعض المخطوطات الطبية ، و يترجمها إلى اللغة العربية ثم يطلب منا حفظ ما جاء فيها .

- هل لهذه الكتب علاقة برغبتك في قتل (الآصفي) ؟

- ابتلعت الدهشة لساني، باغتني سؤاله كان جافا ، صريحا و خاليا من أي مراوغة، بكل بساطة حدق بي و سألني ، لا أعرف إذا كان الآصفي صديقا للمعلم إسحاق أم لا ... شعرت أنني مكشوفة أمامه ، عيناه مرة أخرى ، في ظني أنهما غير بشريتين، لا تبصران ما يبصره الناس، تهتك كل ما يستر الأفكار، تدكّ كل الأسوار، و تتركك أعزلا مستسلَما لهما، لدى بعض الناس القدرة على رؤية روحك منزهة عن كل الأكاذيب التي تطمرها، عندما تنظر إلى أعينهم تجتاحك أرواحهم و تحتل كل ركن في أعماقك ، تسحق كل شيء في طريقها نحو وجدانك ، ولا نملك نحن سوى الخضوع ، تلك القدرة العجيبة على رمي الأغلال بكل ثقة لنلتقطها نحن و نكبل بها أيدينا و نمشي خلفهم منكسي الرؤوس ، هذا ما حدث في ذلك اليوم ، يوم سألني المعلم .

- لم هذا الوجوم ؟ لقد سمع الجميع صراخك في ذلك اليوم.

أخذ الكتاب مني ، و استطرد :

- إذا أنت سرت بين الناس تندبين عائلتك و تتوعدين الآصفي ، لن تجني شيئا سوى اللحاق بهم ، فالآصفي طبيب الفضل بن الربيع حاجب الخليفة ، و لن يُعجزه قتلك ، أو سجنك، أو بيعك جارية، ما أهلك المرء شيء مثل لسانه ، أما الصمت فحكمة تورث صاحبها العافية و طول العمر .

كرة من النار ألهبت حلقي، كلماته استحضرت دموعا ظننتني قادرة على حبسها، اريد ان أبكي لكن اين صدر أبي ! تلك الليلة كسرت فيّ شيئا، شظاياه ما انفكت تخدش روحي و تدميها كل يوم ، ما عدت قادرة على حبس هذا الغضب ، كان وحشا أعجزعن ترويضه، ليتني أستطيع دفن هذا الألم الذي تعلو أمواجه ...إنه يغرقني ، تمتمت : (ما نفع طول العمر دونهم ؟) .

انتصب المعلم إسحاق واقفا، و خاطبني بحزم :

- إذا أردت أن تنالي من أعدائك عليك أن تعيشي طويلا و لكي تعيشي طويلا ضمي أحزانك إليك حتى تغوص في صدرك ، أما الآصفي فلن تصلي إليه إلا إذا استكثرتي من اثنين العلم ، و الحيلة .

لم يكن المعلم إسحاق خلال السنوات الأربع التي عشتها معه يحب رؤية دموعي ، كان على الأرجح يعتبرني صبية

مدللة، لا أذكر أنني رأيته غاضبا مثل ذلك اليوم، ربما رأى في وجهي الطفولي الذي يفشي كل أحوالي أمرا غير آمن. كان معجبا بسرعة بديهتي و ذكائي و سعة معارفي، لكنه لم يثق يوما بي (وجهك يفضحك دائما) لطالما اعتقد أنّ اللحظة التي نفشي فيها أحزاننا للغير هي نفسها اللحظة التي نخسر فيها حقنا في أن نحزن (أيًا كان حجم الألم ، ادفنيه ، احفري عميقا و ادفنيه ، الألم خلق ليدفن ، ليغوص عميقا فينا ، ليذوب و يتحلل ، ليسري في دمائنا ، فيبقينا على حافة الحياة ... يبقينا أحياء على أي حال) ، علّمني إسحاق أن أغلي كبركان دون أن تفقد سمائي صفاءها .

- أريدك أن ترافقيني إلى البيرمستان ؟

- أنا ؟

- الآصفي مقرب جدا من جبريل رئيس البيرمستان وقد ابتعثه إلى بلاد اليمن في مهمة ، لكنه سيعود ، عندما يحين ذلك الوقت عليك أن تكوني مستعدة تماما .

- أنا مستعدة يا معلم .

- كلا، لست مستعدة ... قد ترفعك هذه الكتب درجات فوق الناس، لكنك منهم و تحتاجين أن تبقي معهم، لذلك من الضروري أن تغلقي الكتب أحيانا و تنظري حولك ، انظري

إلى الوجوه و تعلمي كيف تنهلين منها ما يساعدك على العيش بينهم ، لا تتورطي كثيرا لكن حافظي على خيط رفيع بينك و بينهم لأنك ستحتاجينه يومًا.

أخبرني يومها عن أسطورة يونانية شهيرة قال انني أشبه بطلها و هو فتى معجب بنفسه معتد بجماله و ذكائه ، فعاقبته الآلهة وهو ينظر إلى الماء مغترا بحسنه فحوّلته إلى زهرة قال :

- إذا دققت النظر ستجدين أنها زهرة تنمو بعيدا دائما عن بقية الأزهار، ذلك أنها في الأصل فتى مغرور لا يحب الاختلاط بالناس، إنّها زهرة النرجس وهي تشبهك يا ناردين. عندما تتعلمين منها عاقبة الغرور سآخذك معي .

ظننت أن المعلم إسحاق يروي الأسطورة على سبيل المزاح فقط و أنه حتما سيصحبني معه في الغد ، لكن الأيام مرّت و الشهور و لم تطأ قدماي البيرمستان، كل ما كنت أفعله هو قراءة الكتب و الاعتناء بالمنزل و الكلب، فاكتسبت عادة جديدة و هي إخبار معلمي بكل ما أرى و أسمع :

- لقد رأتني السيدة (عيديا) أكنس أمام المنزل فثارت غضبا

- ما اليوم ؟

- السبت ...

نظر إليّ و ردد :

- السبت يا ناردين ...

أدركت أنني تجاوزت إحدى التعاليم اليهودية مجددا. السيدة (عيديا) جارتنا، امرأة غليظة لا تنفك عن مراقبة تصرفاتي و عتابي مهما فعلت، ربما لأنها تعلم أنني لست يهودية، و لا ألتزم بتعاليم اليهود، لكنها غاضبِة أكثر من معلمي اسحاق لأنه لا يوقفني عند حدّي، قالت و الزبد يتطاير من فمها :

- لقد رأيتها بعيني هاتين يا سيد إسحاق، رأيتها تطعم الصبي الصغير من لحم الجمل، إذا كانت تأكله لأنها مسلمة فلا يجب أن تفسد صغارنا بهذه العادات المقيتة .

- يا لها من صبية شقية ، كيف تفعل جرما كهذا ؟ هز المعلم إسحاق رأسه بأسى ثم واصل:

- سأنبهها من اليوم و صاعدا .

- يا سيد إسحاق عليك تأديب جاريتك و لو بضربها .

- نعم ، نعم أفهم يا سيدة (عيديا)

كنت وراء الباب أصغي إلى حديثهما، و عندما دخل المعلم حاولت أن أشرح له جهلي بالأمر، وقف ينصت إليّ حتى انهيت كلامي ، ثم قال بهدوء :

- لا تعطي أحدا مما تأكلين .

قال ذلك و صعد إلى غرفته ، كنت أتوقع أن يغضب مني او ينهرني لكنه لم يفعل ، عشت معه في السنة الأولى أجهل عادات اليهود و تقاليدهم و أتشاجر بسبب أو بغير سبب مع السيدة (عيديا) لكنه لم يوبخني يوما ، كل ما كان يقوله كلما اشتكى مني أحد الجيران هو: (افعلي ذلك داخل المنزل) أو (لا تفعلي ذلك خارج المنزل)، مع الأيام فهمت سبب موت زهرة النرجس بسرعة، لأنها وحيدة لا تستطيع أن تقاوم الريح فتقتلعها بسهولة، أما بقية الأزهار فتحتمي ببعضها البعض ذلك يعطيها القوة على البقاء ، لا أريد ان يقتلعني احد من هنا لذلك بدأت أتعلم كيف أساير عاداتهم و أتجنب إثارة استيائهم ، لم أتخل عن التعلم من الكتب، لكنني صرت أراقب الناس من حولي و أتعلم بنفس القدر، حتى أن السيدة (عيديا) المرأة الغليظة لم تعد تشتكي مني، في إحدى الليالي فتح المعلم إسحاق الباب فإذا به يراها أمامه و الابتسامة تعلو وجهها :

- هل ناردين هنا ؟

- نعم .

- لقد وعدتني بأنها ستعد لي شرابا للسعال مرة ثانية فقد أفادني في الأمس و استطعت النوم بسلام .

التفت إليّ معلمي مستغربا و رفع حاجبيه و هو يراني أعطيها الدواء و أنصحها بشربه قبل النوم فقط متمنية لها الشفاء العاجل، قال :

- كنت تكرهينها فما الذي حدث ؟

- لازلت أكرهها، فهي امرأة ثرثارة و تحشر أنفها في كل شيء لكني الآن بحاجة إليها .

في تلك الليلة وقف على باب غرفتي و حدق إليّ و أنا أسحق البذور و أضعها في الأواني الفضية ، سألني :

- إنك تتعلمين بسرعة يا ناردين ...تصغين إلى ما أقول و تحاولين تغيير عاداتك ... (هزير) محظوظ بابنة مثلك. لم أمتلك هذا الحظ مع ابني الذي هجرني ...

سكت هنيهة ثم قال :

- ارى أنك جاهزة الآن لدخول البيرمستان .

في صباح اليوم التالي كنت قد تجهزت للذهاب، نزعت الخلخال الذي أهدتني إياه أمي، لكنني حافظت على خاتمها يطوّق سبابتي، أعلم أنها ما كانت لترضى دخولي إلى هناك لكنّها ستسامحني كعادتها، قلب الأم يختنق إنْ كتم حبه !

أرسلت جديلتي البنية خلف ظهري فشعرت بيد أمي تربّت عليه، حرصت على اختيار أفضل وشاح أسود لديّ و ربطته على راسي لا أريد أن تبدو ابنة البرامكة بلا ذوق ما كانت أمي ستسامحني على هذا. رؤية الآسية (أميمة) مرة أخرى اسعدتني ،عانقتني بشدة و قالت :

- من الجيد أن أراك مجددا ...

التفتت إلى المعلم إسحاق و أردفت :

- هل سمعت يا معلم ؟ لقد قال حرس القائد المقتول أنهم لم يروا و لم يسمعوا شيئا !!!

ردّ معلمي في قلة اكتراث :

- أمر مؤسف ...

طلب منها المعلم إسحاق أن تريني المكان حتى االفه ، كان في البيرمستان قسمان : قسم للرجال و آخر للنساء ، الأطباء

من الرجال كثر لكن الآسيات عددهن قليل و معرفتهن أقل، لذلك تحتاج كل آسية إلى إشراف طبيب حاذق كلما استعصى عليها علاج مريضة ما :

- لكنني لا أريدك مجرد آسية

قال المعلم إسحاق ثم استطرد و هو يسير أمامي :

- أريدك طبيبة تضاهين الرجال هنا ، لا ... لا أريدك أن تضاهيهم فحسب أريدك أن تخيفيهم . ما تملكينه من معارف يفوق ما يملكه الطلاب الجدد .

كان معلمي مؤمنا بقدرتي على النبوغ هنا، إذا كنت أحفظ كل تلك الكتب و المخطوطات فما ينقصني هو ممارسة ما تعلمت فحسب ، واجبي الأول كان مساعدته قبل كل شيء ، و التعلم ثانيا ، لا ألمس مريضا دون إذنه ، و لا أعالج أحدا دون استشارته ، أنا هنا تلميذته أأتمر بأمره وحده ، لم يهبني كل الحرية فقد كنت دائما كظله ، يتحرك فأتحرك ، و يسكن فأسكن ، ذلك ثمن ظننته بخساً في سبيل أن أصير مثله ، قوية و مبجّلة ، صرت أبحث لي فيه عن مجد خالد لم يفلح أبي رغم كل صنائعه مع الناس في بنائه لنا :

- ماذا لو سألني الناس عن اسمي ؟

كان ذلك أكبر همي ، لم ينس أحد في البيرمستان اتهام البرامكة بتسميم ابن عم هارون الرشيد و إن كفّت الألسن عن ذكر هذا الأمر، فإنّ القلوب التي أحبت موسى بن جعفر الكاظم لا تنسى ، و عندما تلا مقتله مقتل بعض العاملين في الدولة الذين وجدوا ميتين ذات صباح ، بلا صراخ و لا ضجيج ، لم يسمع أحد شيئا و لم ير ، حتى حراسهم أقسموا أنها كانت ليلة صافية لا يشوبها شيء ، و أنهم لم يروا أحدا فإن كانوا قد قتلوا فلا بد أن قاتلهم شيطان .

أرعبتني فكرة معرفة الناس أنني ابنة الشيطان الذي دخل إلى البيوت و خطف أرواح الرجال و خرج دون أن يراه أحد. خفت أن أرى ذلك الحقد في أعينهم ، العيش هنا حلمي لكنني كالفراشة تغويها النار ، فهل سيحرقني البيرمستان ؟ تسمرت رجلاي و توقفت عن المسير ، سألته :

- ماذا لو عرفوا أن ابنة الشيطان لا تزال حية ؟ ماذا لو قتلوني كما قتلوه ؟

اقترب مني المعلم و هزّني بشدة :

- الشياطين لا تموت ، لو كان والدك شيطانا لما مات ، لكن انت في وسعك أن لا تموتي ، على الأقل لا تموتي بالبساطة التي مات بها هو .

على هذه الأرض لا يكفي أن تكون ذكيا قد يجلب الذكاء مصائب لا يجلبها الغباء ، من الضروري أن تكون محصنا منيعا حتى تحمي هذا الذكاء ،يجب أن تنشئ لنفسك مخارج سرية تضمن لك الحياة إذا أراد أحد لك الموت ، خصوصا إذا كان يملك أكثر من الإرادة ... القدرة على قتلك . ما الذي يريده الخليفة من كل هؤلاء الأذكياء و العلماء الذين أحاط بهم نفسه ؟ أن يخلدوه من خلال ما يبذلونه في سبيل العلم ؟ ما الذي يريدونه هم في المقابل ؟ المال، السلطة ؟ بعضهم أو كثير منهم كان يأمل أن يبقى فقط على قيد الحياة عندما تعم الفوضى، أن يكونوا على قارب النجاة الوحيد عندما تغرق السفينة ، لم يكن والدي منهم ظنّ أنّ حبّ الفقراء و المعدمين أهم، ما الذي يكسبه الإنسان إذا أحاط نفسه بالضعفاء ؟ إنّ عدوا قوياً يدفعك إلى الأمام أكثر ممّا يفعل مئة صديق ضعيف، هذا ما اعتقده معلمي و هذا ما أصبحت أؤمن به أيضا .

أرافق معلمي إلى البيرمستان أيام الأحد و الاثنين و الثلاثاء لمعاينة مرضاه صباحا أراقب و أتعلم و أحيانا أساعده عندما يتطلب الأمر ذلك ، أمّا بقية الأسبوع فكان يتنقل بين قصور الوزراء و كبار القواد ، يتابع حالة شيخ هربت الحياة من جسده الضعيف حتى تكاد تجزم أنه ميت ، أو يعاين جرحا سببته طعنة سيف في حرب من الحروب التي لا تنتهي

أبدا . كلهم كانوا أصحاب شأن ، لم يكونوا كمرضى والدي فقراء ، كان والدي طبيبا ماهرا ، لكن المعلم إسحاق كان أكثر من طبيب كان أسطورة في الطب ، لم أرَ رجلا هادئا مثله في حضرة الموت ...

كنا في بيت أحد الأغنياء ، وضع المعلم إسحاق يده على الشيخ الهزيل ، ثم هز رأسه علامة على أنّه يحتضر، تمتم الواقفون :

- لا حول و لا قوة إلا بالله .

في هذه اللحظة دخلت علينا امرأة تولول و تصيح (علي ولدي علي) ، كانت خادمة في ذلك البيت ، أمسكت بتلابيب معلمي و أخذت تتوسل إليه أن يلقي نظرة على ابنها الذي لدغته أفعى، لكنّ معلمي أخبرها أنّه هنا لمعالجة سيد البيت . كانت يائسة، صوتها يرتجف هلعا على ابنها، وعيناها الواهنتان تفتت القلب...لا أعلم كيف تخليت عن معلمي في تلك اللحظة و تبعت المرأة إلى غرفة الصبي، كان ممددا على فراشه ، في السابعة من عمره على الأرجح، عيناه تحدقان في الفراغ، وجهه أزرق، يرتعش جسده و كأنه ريشة تتلاعب بها رياح قوية، لاحظت تورم رجله فحاولت فحصها، لكنّ صرخته زادت من ارتباكي بقيت واقفة أحدقّ في ذلك الوجه الصغير، كان يعتصر ألمًا بينما كنت أحاول أن اجمع شتات

أفكاري ، كيف وضعت نفسي في مثل هذا الموقف ؟ دفعني المعلم جانبا و اتجه نحو الصبي ، أدهشني وجوده هنا ، صاح فيّ :

- أحضري لي وسائد يا ناردين

وضعها تحت ظهره حتى صار صدر الولد و رأسه أعلى من جذعه السفلي ، قال و هو يربط فخذه برباط و يشد عليه :

- أين مكان اللدغة ؟

- في الساق اليمنى قريبا من الكاحل .

- أتدركين ما نفعله الآن ؟

سكت للحظة محاولة أن أستجمع أفكاري و قلت :

- نبقي القلب في موضع أعلى حتى لا يصل إليه السم ثم ....

- ثم ؟

لم ينتظر إجابتي و هوى على مكان اللدغة يفتحه بمدية حادة و يمتص ما فيها من سمّ ، يمتص ثم يبصق ، فعل ذلك مرات عديدة حتى انقطعت أنفاسه ، ثم نظر إلي :

- ثم ؟

- نربط رجله حتى نؤخر انتشار السمّ ، و نشرط مكان اللّدغة لـ...

استمع المعلم إلى كل حرف قلته، لم أكن قادرة على قراءة أفكاره: هل هو غاضب أم لا ؟ كان يهز راسه كلما أصبت ، لولا أن حبيبات العرق كانت تتلألأ على جبينه لفكرت أنه لا يهتم بحياة الصبي ، بدا مرتاحا و هو يسألني ويواصل عمله و كأنه يملك هذه الحياة التي تتسرب من بين أيدينا، فلا تخرج إلا بإذنه ، كنت خائفة على الصبي، بدا المعلم خائفا على معلوماتي أكثر، كنا أنا و هو في حضرة الموت، لكنني كنت التلميذة بينما كان هو المعلم ...أخيرا وضع دهنا من نبات الشث على الجرح و أمرني بالبقاء إلى جانبه :

- ستمكثين هنا الليلة ، الصبي سيكون في رعايتك ، الحمى و الغثيان و العطش الشديد ، كل هذه الأعراض ستواجهك في الساعات القليلة المقبلة ، هل أنت جاهزة ؟

فاجأني طلبه ، ظننته سيعاقبني لأنني عصيت أمره و عالجت هذا الصبي لكنّه لم يفعل، صحيح أنني أرافقه منذ سنة إلى البيرمستان و بيوت أعيان بغداد، غير أنّ بقائي

وحدي للاعتناء بمريض يبدو أمرا خطيرا، هل يعاقبني لأنني عصيته ؟ كيف لفتاة في الرابعة عشر من عمرها أن تعتني بمريض كان على حافة الموت ولا يزال ؟ إذا استبدت الحمى بجسده فسيموت الليلة بين يدي، لم أمتلك الثقة اللازمة لفعل ذلك يداي ترتجفان ، و نظراتي ساهمة ، اقترب معلمي مني وضمّ يدي الباردتين بقبضته و همس بحزم :

- لا ترتجفي ، انت مَنْ قررت أن تعالجيه ، انهي ما بدات.

- اشعر بالخوف.

- ليس مهما ما تشعرين به ، المهم هو ما تظهرينه للناس عندما يُفتح هذا الباب و يدخل والداه يجب أن يروا أمامهم طبيبة، إذا لم تؤمني بذلك لن يؤمن أحد به.

كانت اول مرة انقذ فيها روحا من الموت، خفّت الحمى وانقطع الصبي عن التقيؤ، فسقيته كثيرا من الماء حتى يتخلص جسمه من كل ما تبقى من سم، لن أنسى ابدا فرحة والدته التي بعثت الحياة في محياها ، رأيت في عيني الجميع الفخر، إلا عيني معلمي ، كان فيهما عتاب و غضب ، لم يكلمني لأسبوع، عرفت أنني أخطات و أنني كسرت قاعدته للمرة الثانية، بعدما حاولت في إحدى المرات الدخول إلى غرفة كتبه وإحضار تلك المبخرة النحاسية :

- لقد سبق أن نبّهتك أن هذه الغرفة لا يدخلها غيري يا ناردين

- اردت أنْ أستعير المبخرة و حسب ...

- تلك المبخرة ليست للاستخدام ، هل فهمت ؟

كان من الصعب أن أميّز ذاك الحد الفاصل بين ما يزعجه و ما لا يزعجه، قد يغضب لأنني حاولت استعارة مبخرة نحاسية قديمة، لكنّه لا يحرك ساكنا إذا ما خالفت أحد تعاليمه اليهودية... رجل مثله اريد أن أظل بقربه ، اريد ان أتعلم منه ، لذلك صار إسحاق اليهودي لا يُرى دون ناردين البرمكية ، قوس و وتر ، قلم و دواة ، هكذا كنا نحن الاثنين .

أتانا أحدهم قبل بدء حلقة الدرس بقليل و أنا أدوّن ما يمليه عليّ معلمي ، قال في حدة :

- الا تُبالغ أيها المعلم إسحاق ؟ لا يجدر بالآسيات أن يحضرن حلقات العلم مع الرجال ؟

- هذه الفتاة ليست آسية ، إنها تلميذتي و مساعدتي ... لا أحد منكم يجيد السريانية كما تجيدها ، و أنت نفسك لم تقرأ عدد الكتب التي قرأتها ، إذا أردت ابق ، و إلا فإنه لا يجدر بمن هو مثلها أن يكون في مكان يجلس فيه أمثالك .

هكذا كنت لمعلمي ... ابنة يدفعني ذلك للتفكير :هل نحن من نختار الدروب أم هي التي تختارنا ؟ هل نسير عليها فنخلّف وراءنا أثرا أم أننا نتبع أثرا كان مرسوما ؟ هل أردت ان أكون في البيرمستان لدرجة أنني بقيت حية في تلك الليلة ؟ أم أن البيرمستان أرادني بشدة لدرجة أنه ألغى كل عائق يمنع ابنة البرامكة من دخوله حتى لو كان موت عائلتها ؟ ها أنا اليوم بعد ثلاث سنوات من العمل في البيرمستان ، أكثر من آسية و أقل من طبيب ، أنا الآن ما لم تكن عليه اي امرأة في بغداد من قبل : ناردين البرمكية فتاة المعلم و ابنة الشيطان لا بأس بذلك اللقب ايضا، فكثير من المشاكل تنحّت جانبا خوفا من هذا اللقب ، لا بأس من أن تخسر كل شيء حتى و إنْ كان عائلتك و سمعتك ، هذا ما قاله لي معلمي :

- الخسارة أمر جيد .

- ما الشيء الجيد في الخسارة يا معلمي ؟

- أنك ما عدت تملكين شيئا تخافين عليه .

كل ما يبعث فينا الذعر و يكبّل آمالنا و يضع لنا حدودا هو الخوف، الخوف على ما نملك، على أنفسنا ، أولادنا ، أزواجنا ، سمعتنا ، صحتنا .... الخسارة تخلّصنا من مشقة الالتفات إلى الوراء ، لاشيء وراءنا سوى الخراب لن يكون القادم

أسوأ مما تركناه ، في تلك النقطة نحن فائزون في كل الأحوال صار البيرمستان مستقرّي ، أهرب فيه من الذكريات الباهتة التي لا تزال تلقي بظلالها على كل ما أفعله ، لا تزال تخطو معي في أروقته ، تتفتق مع كل نفس تحتضر ، تطل براسها بين صرخات المعذبين ، أبحث في أعين المغادرين عن خوف أبي في تلك الليلة ، أفتش في هواء غرفهم عن الرائحة العطرة ، رائحة موت لا يشبه الموت ، موت اخترنا نحن لنستنشق نفحة من نفحاته .

****

نحن غالبا ما نجهل عمق الصدع الذي يجعلنا مشطورين و مشتتين إلى أن نشاهد أرواحنا أشلاء بين قلب عاشق و عقل متقد ، حينذاك نتحول إلى أشقياء تلحقنا لعنة الاختيار، أيهما اخترت: العقل أم القلب، فأنت نصف راض ، نصف سعيد ، و نصف حي :

- هل بإمكاني قراءة ما دوّنته عن المعلم ؟

صوته المشرق أنار شيئا داخلي فالتفت بسرعة أبحث عن مبعث هذا الصوت، قابلني بابتسامة، و أشار بسبابته إلى الأوراق أمامي ...

لم يكن الرجال الذين يحضرون حلقات درس معلمي راضين عن وجودي بينهم. أنا دائما على يمينه، أحمل قلمي و أدوّن ما يقول، بعضهم اكتفى بنظرات الاحتقار، البعض الآخر توجه باستيائه لمعلمي، لكن أحدا منهم لم يكلمني ، ربما اعتبروا ذلك انتقاصا من رجولتهم، طيلة ثلاث سنوات أمضيتها هنا في البيرمستان ، لم ينجح أحد في إقناع المعلم إسحاق بالتخلي عن هذه الفكرة، كان ردّه دائمًا : (لن أبقى إنْ لم تبق هي) و لم يكن أحد مستعدا لخسارة حلقات درسه. صرت كظله لا أغادره أبدا. و لكن هذا الفتى لا يكلمني

فحسب ، إنه ينظر إليّ مباشرة ، و يبتسم ، طال صمتي فبادرني :

- هل سيرفض المعلم إسحاق هذا ؟

- نعم ... صحيح .

قلتُ ذلك و طويت الأوراق ، أسرعت بالخروج من القاعة ، حثثت الخطى، صارت مشيتي هرولة ، لمَ أهرول ؟ التقطت أنفاسي و خففت سرعتي ، نظرت إلى أوراقي لأتأكد أنني لم أنسها ، إنها هنا في يدي، لماذا يراودني هذا الشعور أنني تركت شيئا ما خلفي ؟ ... استرجعت ابتسامته فالتفت نحو القاعة لكنني لم أره ! ماذا عساه يقول الآن ؟ يقول ما يقوله الناس : فتاة المعلم إسحاق مثله عديمة الإحساس... إذا كان هذا صحيح فما الذي ينقب صدري بنبضاته إذا ؟

هل كانت ليلة طويلة أم أن تفكيري هو الذي جعل الزمن يتوقف ؟ لا أدري، صداع يشق رأسي إلى نصفين، هذا كل ما خرجت به من تلك الليلة ، حتى هذا الصباح البهيج الذي كسا قاعة الدرس حلّة جديدة تبدد رتابتها المعهودة ، لم يفلح في تبديد هذا الصداع . لكنَ رؤية وجهه في آخر القاعة أزالت كل ألم .

أبصرته واقفا في إحدى زوايا القاعة الخلفية، وعاقدا ذراعيه أمام صدره يتابع ما يقول المعلم ، كان بإمكانه أن يقترب أكثر فالمكان في الأمام شاغر ، لكنه بدا مرتاحا في زاويته تلك ، لم يلبث طويلا حتى لمحته يسلك طريقه نحو الخارج ، تعلقت نظراتي به ، و تنهد قلبي و أنا أراه يغادر دون أن يشملني بنظرة .

أخيرا جادت السماء بقطرات الغيث ، إنها بداية الخريف في بغداد ، يفتر سخط الشمس الذي ألهب رؤوس الناس ، فتحتجب خلف السحب متعبة، و تنفض الأشجار عنها بهجة الصيف ، لتكتسي الأرض بأزهار أسلمت نفسها للفناء و لكنها أبت أن تغادرنا دون أن تملأ الساحة الكبيرة بآخر ما تملك، أريج فوّاح... استوى معلمي على كرسيه و أشار إليّ فمددت يدي له بكتابه، غصّ المكان بالحاضرين، طلاب وأطباء وبعض الفضوليين ، هذه آخر مرة يقدم فيها درسه قبل أن يغيب لأيام ، في مثل هذا الوقت من كل سنة ينقطع عن العمل ، يحمل زاده ، و القليل جدا من المال ، و يطلب مني الاعتناء بنفسي و بالبيت ريثما يعود، ترافقه إحدى الكلاب في كل مرة ، ترحل، تغيب، و لا تعود أبدًا، أحصيت خلال هذه السنوات الأربع أربعة كلاب ذهبت دون عودة ، قد يكون معلمي بلا مشاعر يتخلى عنها في

رحلاته حين تموت ، لكنني أبكيهم دائما و إنْ لم أفضي بحزني للمعلم إسحاق ... تنحنح قليلا فهدأ الجميع :

- و الطب عند قدماء المصريين نظير السحر ، ذلك أنّ الكهنة استغلوا معرفتهم لإقناع المرضى بما يريدون فاوهموهم أنّ العلل التي تصيب الجسم ماهي إلا أرواح شريرة ، و أن العقاقير التي يصنعونها تحوي روح الآلهة فازداد عدد المرضى الذين يبحثون عن الشفاء في المعابد.....

أحدق إلى الورق أمامي ، فارغ و باهت ، اليوم كله يبدو فارغا، حتى هذه القاعة الممتلئة بشتى الوجوه بدت فارغة. إذا كان يريد أن يسمع دروس المعلم فلم لا يحضر؟ أجلت نظري بين الحاضرين، لكنه لم يكن موجودا :

- ناردين .... ناردين

كنت غارقة في أفكاري حين طرق صوت معلمي أذني ، هتفت :

- نعم ....

حدجني بنظرة غريبة ، ثم قال :

- ألا تدونين شيئا ؟
- بلى ...

حملت قلمي و تظاهرت بالكتابة ، احاول ان اركز مع كل كلمة يقولها لكنني لا ألبث أنْ أنزلق مرة أخرى في دهاليز أفكاري ، فلا أعي شيئا مما يقول ... قام المعلم من مجلسه ، هممت بالوقوف ، فأشار بيده :

- سأذهب إلى المنزل قبلك ، أما أنت فاعيدي الكتب للمكتبة .

صمت لحظة ، ثم قال و كأنه يتأكد من وصول كلامه :

- هل تعين ما أقول ؟

هززت راسي علامة الفهم ، فغادر معلمي و بقيت في القاعة أرتب ما كتبت ، و أتأكد من الكتب التي يجب أن أسلمها ، زفرت و أنا أنظر إلى الجمل غير المتناسقة التي كتبتها في لحظات أجبرت فيها ذهني على التركيز ، بينما تشهد الفراغات غيابي عن كل ما كان يقال ... يا إلهي ، كيف أهملت درس اليوم ؟ الطب لدى المصريين القدامى موضوع لا يفقهه إلا قلّة قليلة من الأطباء اليهود ، و المعلم إسحاق وحده يمتلك المعرفة الكاملة حوله ، و ها أنا أسهو و تفلت مني نفسي فلا أكتب شيئا ذا فائدة .

سرتُ أجرُّ رجلي و ألعن نفسي ، أعدت الكتب إلى مكانها ثم مررت على غرف المرضى ، لحقت بي إحدى الآسيات تلهث :

- ناردين ، أحتاجك في أمر ؟

تبعتها إلى آخر غرفة في الرواق، وقفنا أمام رجل هزيل الجسم، لا يكاد يلتقط أنفاسه حتى يعاوده السعال من جديد، قالت الآسية و هي تشير إليه :

- أعلم أن المعلم إسحاق لا يحب أن تعالجي غير مرضاه. ولكن هذا الرجل جاءنا بالأمس، و هو يعاني من سعال شديد، و لم تفده أيّ من الأدوية التي سقيتها إياه .

نهاني معلمي دائما عن لمس المرضى الذين لا يشرف هو على علاجهم ، فمن يتابعهم عادة هم المرضى الأغنياء أو من الحالات التي قد تفيد في تعليمي أشياء جديدة ، إذا علم انني عالجت أحدا دون إذنه فقد يغضب ، قلّبت الأمر في راسي مرارا ، لماذا أعجز في كل مرّة على أن أكون مثل إسحاق ؟ لماذا أرى وجه أبي (هزير) في وجوه هؤلاء المرضى البائسين ؟ فكرت في أن أُعرض عن طلبها ، لكن أنفاس الرجل كانت ضعيفة ، و أنينه الخافت يفطر القلب ...

- ناردين ؟ قالت الآسية و قد أيقنت أنني لن أساعدها .

ألقيت نظرة عليه فعلمت أنني إن لم أتكلم مات كل من في الغرفة و ربما هذه الآسية أيضا :

- من الطبيب المسؤول عنه ؟ ...هذا الرجل مصاب بذات الرئة ، و يجب أن لا يختلط بغيره من المرضى .

تراجعت الآسية خطوة إلى الوراء و وضعت كفها على أنفها ، كررت سؤالي :

- من المسؤول عن وجوده مع بقية المرضى ؟

- أنا .

اتّسعت عيناي ، و نبض قلبي بسرعة و انا أراه أمامي منتصبا بقامته الطويلة ، دخل إلى الغرفة فحيّا الآسية بابتسامة تلاشت بسرعة فظهرت قسماته أكثر جدية ، لم ينظر إليّ و إنمّا اتجه مباشرة نحو الرجل الذي بالكاد كان يتنفس ، وضع يده على جبينه و قال :

- لكن الرجل لا يعاني من الحمى ، كيف عرفت إذا أنه مصاب بذات الرئة ؟

مسحت كفي المتعرقة بثوبي و أخذت أصابع الرجل بين يدي ، و أشرت إلى أظافره :

- أظافر عريضة و مدورة ... تسمى لدى اليونانيين بأصابع ابقراط ، هذا يعني أن المرض لا يزال في أوّله .

استرقت النظر فوجدته يمعن النظر إليّ ، شعرت بوجهي يتورد خجلا ، سحب يد المريض و حدّق فيها جيدا قائلا :

- اصابع ابقراط ؟ كيف لم الاحظ ذلك !!!

أحسست بانتصار غريب و أنا اراه يتأكد مما أقول و يطلب من الآسية أن تجهز للمريض غرفة خاصة لا يقاسمه فيها أحد. مشيت مبتعدة ، فتناهى إليّ صوت خطواته تلحق بي !سار حتى تجاوزني ثم استدار صوبي و استقبلني بنفس الابتسامة التي رأيتها أول مرة ، كان الفضول قد استبد بي .بدا أنه يكبرني ببضع سنوات فقط ، سألته :

- كيف يعقل ان تكون طبيبا و انت على الأرجح لم تتجاوز العشرين من عمرك ؟

- لا يعقل أيضا أن تكوني طبيبة فتلك مهنة الرجال و لست حتما آسية فأنت أعلم منهن ، إذا اختارك المعلم إسحاق إلى جانبه فأنت ..

رفعت حاجبي مستغربة :

- هل تعرفه ؟

- كنت في ما مضى مثلك تلميذه .

استلقيت على فراشي أقلّب ما قاله صهيب لي ، من النادر أن يتخذ المعلم إسحاق تلميذا خاصا له ، ثم إذا كان تلميذه حقا ، لماذا يحضر دروسه خفية ؟ و ما السبب الذي جعل علاقتهما القديمة تنقلب إلى كره ؟ صهيب يحفظ جميل المعلم لا شك، يريد أن يكون قريبا منه و لكنه لا يريد أن يراه ! شيء ما تخفيه كلماته ، و تفضحه حركة شفتيه كلما أمسك عن الكلام . سمعت نباح الكلب ، فانقبض قلبي ، هذه آخر مرة ساراه فيها ، ككل مرة لن يعود من تلك الرحلة كما لم تعد الكلاب الأخرى، ابصرت معلمي عنده يمسح على راسه . اقتربت منهما أكثر دون أن يلاحظني ، أعجبني مشهد معلمي و هو يشبه الطفل الصغير يلاعب كلبه ، ربما أفشى وجهه هذه المرة شيئا من الحزن الذي لم أعهده فيه ، لكنني بشكل ما أعلم أنه قائم في أعماقه ، مثلي يسكنه شجن...قد يحتاج الجسد إلى الزمن ليتعافى ، لكنّ الزمن لا يشفي الأرواح ...الروح لا تحتاج إلا إلى روح تشبهها كي تتعافى و قد يحصل ذلك بين ليلة وضحاها ، كروحينا ...همست :

- ألا تخرج دونه هذه المرة ، إنه صغير لا يتحمل مشقة الرحلة؟

- ليتني أستطيع ، لكن الرحلة لا تكون دونه .

صمت كلانا و نحن نشيّع هذا الكلب الصغير بنظرات الأسى ، همس معلمي :

- رأيته اليوم ، لقد عاد .

- مَنْ ؟

- الآصفي ... لقد جاءني إلى هنا .

لا أ علم كم مضى من الوقت و أنا أنظر إلى معلمي في وجوم ، صدمني الهدوء الذي رافق لفظه لاسم الآصفي ، لم يتحرك فيه شيء ، بينما اضطربت كل حواسي و انا أسمع اسمه ، ظننتني ساكون أقوى يوم ألتقيه مجددا ، ظننتي قادرة على كتم حزني ، لم أعلم أن هذا الحزن قد ضرب بجذوره عميقا داخلي ،صار من المستحيل اجتثاثه ، إنه مدفون لكنه ليس ميتا و هو دائما يمتص كل ما فيّ من حياة ، إلا أنّه كما قال معلمي يبقيني حيّة على أيّ حال .

قطع معلمي الصمت الذي ساد المكان قائلا :

- لا أستطيع تأجيل الرحلة ، لذلك عليك أن تكوني حذرة لا اريدك ان تقتربي منه ، لا أريد أن يعرف بوجودك في البيرمستان ، هل ما أقوله واضح يا ناردين ؟

لم أجبه ، فوضع يده على راسي و قال في شيء من الحزم :

- سنقتله يا نا ردين ....قليل من الصبر بعد يا بنيّة ....

في الأيام التي كنت أذهب فيها إلى البيرمستان خلال غيابه ، حيرتني خفقات قلبي أكانت كلمات صهيب التي بعثت فيه الحياة أم معرفتي أنني و الآصفي نتقاسم الأرض و السماء ، نتقاسم الهواء نفسه ؟ ما الذي يجعله ينبض بهذا العنف الحب أم الكره ؟ لم أستطع التمييز. في كل مرة أحاول فيها أن أنكمش داخل حزني ، في كل مرة أتحسس طريقي في الذاكرة نحو تلك الليلة الحالكة ، أتنسم رائحة الموت الزكية التي لا تشبه شيئا عرفته ، يشدني وجه صهيب الساحر إلى الحياة ابتسامته واسعة و آسرة ، صادقة لدرجة أنني أفكر أحيانا في الهرب معه بعيدا عن كل ما كان و ما سيكون ...بالأخص ما سيكون .

مال برأسه إلى الوراء فبرز ذقنه أكثر ، أنفه الدقيق يغريني بلمسه و لحيته الخفيفة تضفي على ضحكته فتنة لا تقاوم ، قال في شيء من الأسى :

- أنت تشبهينه لقد اصبحت مثله ، أنت تشبهين المعلم إسحاق.

- و مَنْ لا يريد أن يكون مثله ؟

لم اغضب لأنه شبهني بمعلمي فذلك مبعث فخر، الألفة التي نمت بيننا خلال أيام قليلة جعلتني أبتسم لتشبيهه الساذج هذا و أنا أتخيّل عمامة سوداء تعلو راسي و خاتمي الذهبي ذو الفص الأزرق يزين يدي المجعدة التي تتمايل كلما أردت شرح امر ما ، أجلس على كرسي في القاعة الكبيرة يتحلق حولي الطلاب و يصغون باهتمام بالغ إلى ما أريد قوله ، راقني التشبيه فاتسعت ابتسامتي، اقترب صهيب مني كثيرا حتى صارت المسافة بيننا أقل من قدرتي على النظر في عينيه، أشحت ببصري بعيدا عنه صوب السماء خلفه و قد ادركت أنه ينظر إلى عيني مباشرة ، لم اشأ ان ابدو مرتبكة فقلت من غير تفكير :

- الغيوم تنبيء بغيث قريب .

- ما حاجتي بغيوم بعيدة تحيي الأرض و في عينيك لون الغيم الذي يحيي القلب ؟

كانت كلماته كافية لتتفتح الفرحة داخلي، صغيرة وضعيفة ، لكنها موجودة ، أشفقت على تلك الفرحة التي عليها أن تحيا جنبا إلى جنب مع الحزن الوارفة أوراقه، أوراق قاتمة تغطي كل شيء و تمنع الهواء و النور، كيف للفرحة أن تنمو في ظل هذه الشجرة السامة ؟ سأظل خائفة عليها أحمل همّها بقدر ما أحمل بذرتها داخلي ، لم يكن بإمكاني ان اتحرر تماما من الألم ، لم أكن مستعدة لأسلم نفسي لفرحة نقيّة مثلها ، أنا التي غمرتني الأشجان . لم يعطني حزني الحق في أن اسعد كايّ صبية بحب يدق بابي ، ما انفك يذكرني أنّ ليس من حق البرامكة أن يحبوا أحدا ، و ليس من واجب أحد أن يحبهم ، يكفينا نحن البرامكة ترف البقاء على قيد الحياة ، و يكفيني أنا شرف قتل من منحني هذا الترف .

تتناقل الألسن خبر عودة الآصفي، لكن أحدًا لم يره في البيرمستان بعد ، إنّه أكثر شخص مرشح ليصير نائب الرئيس، وعده وزير الخليفة بمساعدته للحصول على هذا المنصب عندما يعود من اليمن ، لكن غيابه عن البيرمستان بالرغم من عودته إلى بغداد أثار الأسئلة... رغبة ملحة تنتابني كلما وطأت قدماي البيرمستان ، رغبة في رؤية وجه

الأصفي، و في سؤاله (لماذا قُتل أبي ؟) أريده أن يجيبني ببساطة تضاهي البساطة التي قتله بها ، لا حاجة لي بتعقيد الأسباب ، و هذيان السياسة ، و غموض الإشاعات ، ما نفع الإجابات إذا كانت تقودك إلى المزيد من الأسئلة المبهمة ؟ إنها حلقة مفرغة ، ما عدت أطيق البقاء فيها بعد اليوم .

وقفت تحت مدخل البيرمستان أحتمي به من المطر الذي اشتدت غزارته مع ساعات المساء الأولى ، وعدني صهيب أنه سيراني قبل مغادرتي البيرمستان ، فأين هو الآن ؟ مددت يدي تحت زخات حبّاته أستمتع بنقرها الخفيف على راحتي ، بعث فيّ ذلك شيئا من الاسترخاء و الطمأنينة ، لاح طيفه من بعيد يسرع الخطى نحوي ، سحبت يدي و وضعتها خلف ظهري ، حتى لا يظن أنها ممتدة إليه ، وقف أمامي و ثيابه مبللة ، و وجهه النحيل يقطر ماءً ، صاح بي و الابتسامة لا تفارق وجهه :

- طلبت منك انتظاري في الداخل .

- لولا المطر الغزير لما رأيتني هنا .

قال في شيء من الاستعطاف و قد علم أنني مستاءة لأنه تأخر:

- الا تشفقين على وجهك الجميل من هذا العبوس ؟ أنا لم اتأخر لكنني كنت أبلغ رئيس البيرمستان بأنّ والدي سيكون في البيرمستان يوم غد ...

- هل يعرف والدك رئيس البيرمستان ؟

- نعم ....

أطرق صهيب في الأرض برهة ، ثم قال بمرارة :

- لكنّه الآن مريض ...مريض جدا .

شعرت بحزنه الذي فاض فأطفأ توهج ابتسامته ، قلت مواسية:

- لا تحزن ، إن الله لا ينسى عبده ، وإنه حتما معك .

- هل أطلب منك معروفا ؟

هتفت فورا :

- طبعا .

- هلاّ أتيت غداً إلى البيرمستان ، أعلم انّ المعلم إسحاق سيعود غدا، لكنني اشك أن مرض والدي خطير لذا فهو لا

يريد أن يفصح عنه ، أريدك أن تكوني حاضرة غدًا عندما يلقي نظرة على المرضى الذين اعالجهم ، اريدك أن تبقي بقربنا و تلاحظي أعراض مرضه ، و تطلعيني عليها ، اشكّ في مرض معين لكنني أفضّل أنْ أتأكد ، هل تفعلين ؟

أجبت بلا تردد :

- نعم ، أفعل .

لقد سبق أن حدثني صهيب عن نفسه و عن حبه للمعلم إسحاق و ما تعلمه منه كان مثلي يتحدث عنه بشغف ممزوج بشيء من الأسى لفراقه ، لكنه لم يتحدث عن والده كثيرا ، كل ما قاله لي أنه طبيب له حظوة لدى رئيس البيرمستان . غمرتني سعادة عارمة عندما تذكرت أنه طلب مساعدتي . أحسست أن بذرة الفرح داخلي تنمو و تقوى بعد ضعف .. كبرت ، صارت الفرحة كبيرة ، أكبر مما أستحق ...

في الصباح الباكر وصلت إلى الغرفة ، أخذت مكاني قرب أحد المرضى اترقب دخول صهيب و والده ، أخذت الآسيتان ترتبان المكان و تتأكدان من أن كل مريض قد تناول فطوره ، ظهرعليهما الارتباك و هما يجتهدان ليكون كل شيء في مكانه ، همست في سري : (لم يخبرني صهيب أن والده رجل مخيف أيضًا) ، دخل رجل طويل القامة ، في العقد

الخامس من عمره ، أجال النظر في المكان بعينين سوداوين ، بدا عليهما شيء من الوهن ، كان إلى جانبه صهيب يحاول اللحاق بخطواته الواسعة ، لمّا رآني ابتسم فبادلته الابتسامة ، أومأ برأسه نحو الرجل إلى جانبه ففهمت أنه والده .

تأملتهما و هما يعملان في تناسق ، يتكلم الأب فيهز الابن رأسه موافقا ، و يشير بيده فيأتيه بما أراد من عقاقير أو دهن ، تذكرت ما أوصاني به صهيب ، فصوبت نظري نحو الرجل أستطلع ما فيه من علّة : جسم هزيل ، و انحناء طفيف إلى الأمام ، يتكلم قليلا ثم يسكت ليلتقط أنفاسه كأنّ صدره يضيق بالهواء ، صوته أجش و يداه ترتجفان ، يهتز صدره مجددا ، فيسرع بوضع منديل على فمه ليكتم سعالا حادا يسمعه كل مَنْ بالغرفة ، كان واضحا أنه مصاب بذات الرئة .

همست الآسية في أذن الأخرى ، و هما ينظران إلى صهيب و والده يخرجان من الغرفة :

- مَنْ يُصدق أن هذا الكهل الضعيف هو نفسه الآصفي ؟

- لابد أنه مريض جدا .

ابتلعت الدهشة لساني ، فالتفت أنظر إلى الرجل مرة أخرى ، لاحظ صهيب نظراتي الساهمة فحاول لفت انتباهي

بابتسامته المعهودة ، لكنني في هذه المرة لم أبادله الابتسامة . استقرّت عيناي على والده ، تفرّست في وجهه جيدا أفزعتني ملامحه التي تطابق ملامح صهيب ، أنفه ، عيناه ، عظم وجنتيه ، سمرته ، كان يشبهه في كل شيء ، إلا تلك الصورة التي رسمتها له في ذهني ، مَنْ يصدق أن وجها كهذا هو وجه الشيطان ؟

لم أنتظر عودة صهيب ، و لا توقف المطر ، سرت تحت رذاذه بخطى واهنة ، ربما أبَتْ السماء أن ترى دموعي فسبقتني هي بالبكاء ، وحدها السماء كانت تطلع على هذا النحيب العالي داخلي ، عندما فتحت الباب وقعت عيناي على المعلم إسحاق يجلس على مقعده الخشبي ، و يتدثر بعباءته في يده كأس الشاي الساخن ، يتقي به برد هذا المساء ، وضعه جانبا ، و طلب مني الاقتراب ، نظر إليّ في استغراب ثم قال:

- قدماي تؤلمانني ، لا تجبريني على الوقوف ، هيا تعالي .

أحسست أنني نكثت وعدي له، و أنّ المساحة التي عملت جاهدة لتقليصها بيننا كل تلك السنوات صارت اليوم أوسع، ما أفظع ذلك الإحساس ... أنْ ينهشك الندم و أنت بكامل وعيك بفداحة الخطيئة ... إحساس فظيع ... اقتربت منه و جثوت على ركبتي ، أحسست بيده على رأسي فانفلتت مني شهقة

حبستها طويلاً حتى أنها خرجت عالية و حادة ، قال و قد أنهكه الانتظار :

- ما الذي حدث يا ناردين ؟ هل كنت في البيرمستان ؟

- ....

- هل التقيت بالآصفي ؟

هززت راسي ، فامسك بذقني و رفع راسي إليه بعنف :

- هل عرف من تكونين ؟

- لا ، لكن ابنه يعرفني .

- ابنه ؟ من ؟ صهيب ؟

وضع عباءته عليّ و شدّها جيدا ، ثم قام إلى ابريق الشاي فسكب لي كاساً ، و مدّه إليّ :

- اشربي هذا فالجو بارد .

أخبرته بكل شيء عن صهيب ، أردت أن يخف هذا الحمل الثقيل عن ظهري ، علمت أن ظهر إسحاق أكثر صلابة ، و ان عينيه الضيقتين بوسعهما أن تريا دائما ما ليس

بمقدور بشري آخر أن يراه ، أطرق في الأرض ، و تحسس خاتمه الذهبي ، كعادته لم ينبس بكلمة ...

****

اليوم يجتمع كل العاملين من أطباء و آسيات في القاعة الكبرى مع رئيس البيرمستان السيد جبريل ، لمناقشة مرض زبيدة زوجة هارون الرشيد ، تعاني منذ أشهر من آلام متفرقة في جسدها تشتد عليها أيامًا ثم تغادرها لأسابيع لكأنها لم تكن ثم تعاودها مرة أخرى فتستدعي السيد جبريل لاستشارته . يتصدر القاعة كبار الأطباء و أعظمهم شأناً ، صهيب بينهم يبدو أنيقًا بعمامته التي كشفت عن جبهته فزادته وسامة.. يجلس إلى جانب والده ، لكن نظراته تسألني من بعيد عن سبب غيابي في الأيام القليلة الماضية .

على الأرجح ان سيري تحت المطر في ذلك اليوم هو ماسبب لي حمى شديدة جعلتني ألازم فراشي ، كان جسمي يرتعش من شدة البرد ، و حرارتي عالية جدا ، صداع رهيب يضغط على رأسي ، امتنعت عن الطعام فازدادت حالتي سوءًا ، و وهنت قوتي ، لكن المعلم إسحاق لا يزال يصرّ على

أن جسمي بخير و أنّ قلبي هو الذي سيقودني للانهيار.حذرني من مغبة البقاء في منتصف الطريق طويلا :

- عليك أن تقرري الآن ... هل تريدين الانتقام من الآصفي أم لا ؟

- ما الجدوى من الانتقام الآن ؟ سيموت الآصفي على أي حال .

- لست الوحيد الذي لاحظ إذًا، أنت تعلمين أنه مصاب بذات الرئة .

- يبدو بأنّه يسيطر على مرضه حتى الآن ...لكنه ميت لا محالة ...

- أننتظر موته !!! ماذا لو عجّلنا نحن أجله ؟

لم يكن صعبا على الآصفي أن يحصر أعراض مرضه ، فذات الرئة مرض يسوق صاحبه إلى الموت غير أنّ طبيبا مثله في مقدوره أن يقلل من أعراضه بما يتوفر من أعشاب و عقاقير، فيصبح الأمر قضية وقت فقط ... أمّا معلمي فلا يطيق ذلك الوقت المتماطل الذي يجبره على رؤية الآصفي أمامه على الرغم من علمه بأنّه يحتضر ...ارتفعت أصوات الأطباء داخل القاعة ، كل منهم يريد أن يحظى

بشرف تطبيب السيدة زبيدة ، وقف رئيس البيرمستان محاولا السيطرة على الفوضى التي تعم المكان ، قال :

- يا أيّها السادة ، إنّا لا نزكي أحداً على أحد ، و لكنكم تعلمون أن السيدة زبيدة امرأة هاشمية جليلة لا ترضى أن يطلّع عليها رجل و إن كان طبيبا .

قال أحدهم :

- إذن ترافقنا الآسيات ، و يطلعننا من خلف حجاب علّنا نصل إلى سبب الداء .

ردّ آخر :

- سبق أن فعلنا فلم نصل إلى شيء ، إنّ الآسيات لا يمتلكن دقة النظر التي يمتلكها الطبيب .

- إذن نُرسل مَنْ تملك دقة الطبيب و سعة علمه .

قال معلمي و هو يسير نحو رئيس البيرمستان ، واصل :

- نُرسل فتاة جمعت صفات الطبيب و الآسية ...

بدا أنّ كل مَنْ في القاعة يعرف مَنْ المقصود بالكلام الجميع ما عداي أنا! أنا التي بقيت أحملق طويلا في وجه

معلمي ، و هو يشير إليّ وسط الناس بسبابته ، كان يقصدني أنا ... أحسست بالذعر ، لولا أنني أعرفه جيدا لظننت أنه يمزح ، أو يحاول إخافتي فقط ، لكن معلمي لا يمزح أبدا ، منذ أول مرة التقينا فيها قبل أربع سنوات ، لم أشهد المعلم إسحاق مبتسماً أبداً ، ولا غاضبا ، وجهه متحجر خال من كل تعبير إلّا من تقوس طفيف في شفتيه أو ارتفاع يسير في حاجبيه إذا ما فاجاه طارئ، ليس بمقدور ايّ أحد أن يجزم بما يشعر به ، حتى كلماته التي يلفظها فتتوهم أنك قد فهمتها ، حتى هذه الكلمات تكتم أكثر مما تفشي. صوّب كل من في القاعة نظرهم نحوي، فظننت أنه من غير اللائق أن أبقى جالسة في مكاني ، وقفت و أنا أحاول إخفاء قلقي، لكن المعلم إسحاق لم يمهلني و أمسك برسغي و سحبني إلى وسط القاعة :

- تعلمون أن ناردين ليست كالآسيات ، فقد خَبِرْتم سعة علمها و رجاحة عقلها و صواب رأيها ...

كان بإمكاني رؤية وجه الآصفي بوضوح من المكان الذي أقف فيه ، مال نحو ابنه و همس بشيء في أذنه جعل صهيبا يطأطئ رأسه استياءً ، التفت نحونا و ابتسم ، ثم قام من مجلسه و هو يرتكز على كتف ابنه :

- صبية فتية كهذه تعالج السيدة زبيدة ! أليس في مجلسنا هذا مَنْ هو خير منها يا إسحاق ؟

ردّ معلمي بصوت منخفض :

- أنا أدرى الناس بها ، و إنني أزكيها على نفسي في هذا الموضع ، لأنها أكثر تلاميذي شبها بي ...

أطلق الآصفي ضحكة ساخرة هيجت صدره ، فأخذ يسعل من جديد ، مسح بمنديله طرف فمه ، ثم قال :

- لا نرسل أيّ أحد إلى بلاط الخليفة فقط لأنه تلميذك أيها المعلم إسحاق ، لا سيما فتاة مجهولة عندنا ....

- ناردين ليست فتاة مجهولة عندنا ، ألم تعلم أيها الآصفي .؟

اقترب معلمي أكثر من الآصفي قبل أن يلفظ آخر كلماته التي جعلت الآصفي يفتح فمه دهشة :

- ألم تعلم أن هذه الفتاة هي ابنة هزير... صديقك ؟

ضجّت القاعة بمن فيها بعد سماع كلام معلمي ، يبدو بأن الذكرى هي الحالة الدائمة التي يعيشها البشر، النسيان هو الحالة المؤقتة عندهم ، فالجميع هنا لم ينسوا حادثة عزل أبي و اتهامه زورًا لمجرد أن مقتل موسى بن جعفر صادف

ترجمة أبي لكتاب نادر عن السموم ، ذلك كان دليلا كافيًا في نظر أعدائه ، و إنْ لم يجرؤ البعض آنذاك على الوقوف في صفّ أبي مخافة الدخول في صدام بين قوتي البرامكة والخليفة ، لكنهم اليوم على يقين بأنه قُتل ظلمًا ، فأولئك المتعصبون الذين سفكوا دم عائلتي ما كانوا ليجرؤوا لولا انقطاع حبل الود بين الرشيد و بين البرامكة، لا سيما أن حوادث قتل مشابهة لبعض رجال الدولة حدثت بعد موت أبي ما يوحي بأن القاتل الحقيقي لا يزال حيّاً .

جمد الدم في عروقي و انا أبصر الآصفي يتقدم نحوي ويحدجني بنظرات ترمي شررا ، وقف على مسافة قريبة جدا مني ، و تفرّس مطولا في وجهي ، همس في شك :

- ابنة هزير ! ألم يمت الجميع تلك الليلة ؟

أجابه معلمي بنفس النبرة الهامسة :

- الشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يجيبك هو ناردين ، هل تريد أن تسألها عمّا رأت تلك الليلة ؟

اضطرب الآصفي أمامي وكاد يسقط من شدة السعال فهرع إليه صهيب يسنده ، انتفض رئيس البيرمستان ممتعضا ممّا رآه :

- هذا يكفي ... لن نرسل أحدًا حتى نتأكد من انّه مؤهل ، امّا الآن فأريدكما أيها السيدان أن تتبعاني ...

انفرد رئيس البيرمستان بالآصفي و المعلم اسحاق ، فيما انفضّ الناس و غادروا القاعة واحدًا تلو الآخر ، وحدنا بقينا في انتظارهما ، أنا و صهيب ينظر كلانا للآخر ، دون أن نتفوه بأي كلمة ، تحسست يديّ المرتعشتين و شبكتهما في محاولة أخيرة لتهدئة نفسي و تلقينها الصبر، لكن صبر صهيب كان قد نفد ، سألني :

- ما الذي قاله المعلم إسحاق لوالدي ؟

- لست أعلم

صاح بي :

- كفاك كذبا ... أنا أعلم أنّ المعلم و أبي يتنافسان للحصول على منصب نائب الرئيس ، لكن ما علاقة كل ذلك بك ؟

أشحت بنظري بعيدا و لم أجبه تركته يغرق في الأسئلة ، سيجنّ قليلا ثم يعود إلى صوابه ، لا بأس .. هذا افضل له من أن يسمع الإجابات التي ستقتل كل شيء بيننا كنت أفضّل أن نموت نحن الاثنين على أن يموت هذا الحب ..

هذا الشعور الرقيق لا يحتمل ثقل الماضي سيتهتك ، و ليس في وسع اي قوة أن تصلح هذا الضرر ، سيزول و يمّحي تحت سيل الدمّ الذي أريق في تلك الليلة ، و أنا رغم أنني قررت ان أقطع صلتي بصهيب إلا أنني أريده أن يحتفظ بهذا الحب في قلبه معافى غير معطوب ، أريده أن يبتسم دائما عندما يتذكرني ، سيكون من البشع أن يسمع الإجابات مني، فلا يحق لي أن اتركه مع عار أب و صدع في القلب .

خرج الآصفي أولًا من الغرفة ، اكتظت ملامحه بالغضب و الاستياء ، حدجني بنظرة ازدراء ، ثم سار وقبل أن يلحقه صهيب اتجّه إليّ و قال بعد أن تأكّد من أن والده قد ابتعد :

- لا أعلم ما الذي بينك و بين أبي ، لكنني سأقول لك شيئا يا نادرين ، لا تصدقي كل ما يقوله المعلم إسحاق ، فهو ليس كاملًا كما تعتقدين .... فكري فيما قلته

ابتعد صهيب و خلّف وراءه زوبعة من الأفكار كادت تقتلعني من مكاني ، نظرت إلى معلمي الذي خرج و توجه نحوي مباشرة ، قال :

- ستكونين في قصر الرشيد غدا .

- لكن ....

- لا أريد أن أسمع شيئا ، لقد سبق أن اتفقنا على هذا .

انفجرت قائلة :

- كلا ، نحن لم نتفق على هذا ، كل ما كنت اريده هو أن ألحق الأذى بمَنْ قتل ابي ، اما أن أدخل إلى قصر الرشيد فهذا أمر لم نتفق عليه .

- هل تظنين بأنه من السهل إيذاء الآصفي ثم المضي في حياتك قدما دون أن تطالك سطوته ؟ إنها نفس اللعبة التي رفض والدك أن يلعبها ، لذلك مات يا ناردين .

كان المعلم إسحاق على صواب ، إنها نفس اللعبة التي رفض والدي أن يلعبها ، رفض أن يدخل قصر الرشيد، أو أن تصير مهنته كطبيب مجرد وسيلة لتحقيق غايات أخرى . الكثير من الأطباء مثله رفضوا التدخل في شؤون السياسة خشية مصير مجهول ، قلّة قليلة منهم فقط راهنت بحياتها على هذه اللعبة ، دخلتها، و ربما أجادتها كما أجادها الآصفي ، لكن هذا الأمر ماعاد يشغلني ، كل ما شغلني في هذه اللحظة هو سؤال واحد :

- ماذا عنك؟ هل تلعبها يا معلمي ؟

همّ المعلم إسحاق بقول شيء ، لكنه أحجم في آخر لحظة ، استدار و خرج من القاعة دون أن يجيبني ، أظنني تجاوزت إحدى الحدود التي وضعها ، ربما... لكنني على يقين بأنني لن أصل إلى شيء ما لم أتجاوز هذه الحدود ، في كل مرة أفعل ذلك ألمح وجها جديدا لمعلمي ، لم أعرفه من قبل فقط ألمحه لا استطيع أن أفصل فيما إذا كان ما رأيته حقيقيا أم لا !! لكنّي متأكدة من أنني رأيته.تتعدد الأوجه ، صارت تربكني ، أخاف أن أتقصى أو أدقق ، أخاف أن أتوغل أكثر فأتأكد ... أتساءل : أيٌّ منها هو معلمي ؟

جفاني النوم ، لم أستطع إغماض عيني و أنا أعلم أن ما قلته للمعلم إسحاق قد أغضبه ، خرجت من الغرفة فوجدته جالسا على كرسيه لم ينم هو أيضا ، كان يقرأ كتابًا على ضوء سراج بجانبه ، رفع بصره نحوي ثم عاد ليكمل القراءة. دنوت منه و أنا أرتب في نفسي ما يجب عليّ قوله ، فاجأني بقوله :

- لقد أخذت عني كل شيء ، كل شيء يا ناردين ، إلا وجهك الذي يفضح ما في قلبك ، لا ينفك يذكرني بوجه أبيك .

أحزنني قوله فهمست :

- ألَمْ تقل أنني أفضل تلاميذك ؟

- افضلهم عقلًا و ليس حيلة ، أنت لا تصغين إلى ما أقول عندما يتعلق الأمر بنا نحن الاثنين ، يجب أن تعملي بما أقوله فقط ، الآصفي وصل إلى ما وصل إليه بحيلته لا بعقله ، الآن و قد علم من تكونين بإمكانه أن يسيء إليك... إنه يكرهك كما يكرهني ، قد لا يكون في وسعه قتلي أو إيذائي لكنه يستطيع إيذاءك ، أتعرفين لماذا ؟

- ....

- لأنك إلى الآن بدون سند يا ناردين ، و هل تعلمين ما السند ؟ ليس المال و لا العائلة و لا الكتب التي تقرئينها ؟ السند في بغداد هو السلطة ، كلما كنت أقرب إلى قصر الرشيد كلما كنت في مأمن

نظرت إليه و أنا أسترجع قول صهيب عندما سألته عن رأيه في المعلم إسحاق ، قال :

- إذا أحبك – وهذا نادرا ما يحدث- فستكونين ابنته ، لكنك قد تستيقظين ذات صباح لتجدي نفسك عدوته ،هكذا عاملني قبل أن يقطع صلته بي، إنّه رجل عصي على الفهم ، و هذا ما يجعلك دائما منجذبة نحوه ... الفضول . إنّه يثير فضول الطلاب الصغار دائما ، كلامه و معرفته و عاداته ، نريد جميعا أن نكون مثله .

كان معلمي بإرسالي إلى القصر من أجل علاج السيدة زبيدة يرمي إلى ما هو أكثر من المال ، كان يريد أن يُذكر اسمه في قصر الرشيد فترتفع مكانته هنا في البيرمستان ، يحزّ في نفسه أن يكون شخص مثل الآصفي نائبا للرئيس، بينما يرى نفسه أحق بهذا المنصب ، و لكنه أيضا كان يريد حمايتي بتقربي من السيدة زبيدة ، فلن يستطيع أحد إيذائي و أنا في حمايتها ، خاصة إذا كان العداء بين أبي و الآصفي قد صار معروفا لدى الجميع . ختم المعلم إسحاق كلامه بقوله :

- يجب أن تكوني في مكان منيع، فإذا فكّر الآصفي بقتلك اتهمه من وهبوك تلك المكانة ، و قربوك إليهم ، و هذا لا يكون إلا بدخولك للقصر .

وقفنا مطولا أمام قصر الرشيد الشامخ ، فحصني المعلم إسحاق من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ ، ثم قال :

- السيدة زبيدة امرأة رزينة صاحبة عقل راجح ، و هي تقدّر كل ذي علم ، إنْ أنت استطعت أن تعرفي علّتها حظيت عندها بالمكانة المقربة . سندخل الآن فالتزمي بآداب الحديث و لا تتكلمي حتى يؤذن لك ...

- أخاف أن يستعصي عليّ معرفة علّتها يا معلمي .

- لا يستعصي شيء على تلميذتي .

حبست أنفاسي و نحن نسير إلى جانب رئيس البيرمستان الذي كان في استقبالنا عند البوابة الكبرى، كل ما في قصر الرشيد يوحي بشخصية هذا الرجل الذي يقدس كل ما في هذه الحياة من جمال و فلسفة ، أعمدة هائلة ممتدة بلونها العاجي على طول الممرات أمامنا ، و الأرضية فرشت بأفخر أنواع الرخام المصقول بعناية، تصل بين هذه الأعمدة أقواس مزخرفة حاملة ثقل السقف الذي اكتسى بلونيه الأحمر و الأبيض و نقشت عليه شتى الزخارف التي تضيع فيها إذا ما أمعنت النظر ، عوالم من البهجة و السحر في ألوانها تكاد تخطف الأنفاس . كل ما وقعت عليه عيناي في طريقي إلى إيوان السيدة زبيدة لم يكن يساوي ما أبصرته من حسن هذه المرأة و جمالها ، كانت في عقدها الرابع بحسب ما علمت لكن وجهها الوضاء و قسماته الناعمة تكذّب كل ما سمعت . انحنى رئيس البرمستان ومعلمي يحييانها ففعلت أنا أيضا ، قال السيد جبريل:

- كيف حال مولاتي اليوم ؟

- نحمد الله في كل يوم يا سيد جبريل

- هذا المعلم إسحاق أحد أهم أطبائنا و قد جئناك اليوم بمَنْ يعينك و يعيننا على معرفة سبب الآلام ، إنها ناردين البرمكية تلميذته و خادمتك يا مولاتي .

استوت السيدة زبيدة في مجلسها و حدقت فيّ بعينين سوداوين واسعتين زاد الكحل من عمق نظرتهما ، هتفت:

- من البرامكة !

سرت في جسدي رعشة خوف ، فالتفتُّ إلى المعلم إسحاق الذي أشار إليّ بالسكوت ، ثم توجه بالكلام إلى السيدة :

- نعم من البرامكة يا مولاتي ، والدها – رحمه الله - كان طبيبا بارعا ، و قد ورثت عنه حذاقته ، و إنني أرى فيها نباهة و فطنة قد تساعدنا في فهم العلّة و معالجتها ، فقد سبق لنا يا مولاتي أن استعنّا بشتى الآسيات و لم ينفعنا ذلك في شيء ، و إنّ هذه الصبية على صغر سنّها تملك من العلم ما لا يملكه أقرانها ، فلو أعطيتها الفرصة .....

- منْ والدها ؟

هتفت :

- والدي هو الطبيب هزير قُتل و عائلته في حادثة السبت الأسود .

لا أدري كيف تجرأت على الكلام دون إذن ، لكنني كنت أعرف أنها فرصتي الوحيدة لأبرئ ساحة أبي ، اتسعت عينا معلمي دهشة ، فحاول إسكاتي قائلا :

- إنّه أحد الأطباء الذين ترجموا كتاب السموم يا مولاتي .

- آه نعم أتذكر تلك الحادثة ، حتى الخليفة لم يكن راضيا عمّا حدث لتلك العائلة ، و لكنّ بعض الناس تسوقها الشائعات و الغضب ، أمر مؤسف ما حدث ...

سكتت برهة ثم استطردت :

- حسن ... حسن ، فلنر براعتها إذن

استأذن رئيس البيرمستان و معلمي للخروج و بقيت أنا. طلبت مني الاقتراب ففعلت ، لقد أخبرني معلمي سابقا أنها تعاني آلاما في أنحاء متفرقة من جسدها ، كما تجد صعوبة أحيانا في الحركة ، فطلب مني أن أركز على مواضع محددة في قدميها ، ففحصت أولا الكاحل و حركته ، سألتها إنْ كانت الحركة تؤذيه فنفت ذلك ، لكنني لاحظت انتفاخ أصبع قدمها الكبير، و عندما حركته تناهى إلى مسامعي أنينها الضعيف .

كان معلمي و السيد جبريل في انتظاري خارج الإيوان ينتظران سماع ما أقول ، هتف السيد جبريل لمّا رآني :

- هل توصلت إلى شيء ؟

- أريد أن أبقى معها ليوم كامل .

- يوم كامل ! لماذا ؟

عاجله المعلم إسحاق قائلا :

- بعض الأمراض تحتاج إلى الوقت الكافي لتظهر كل أعراضها ، أمهلها ما تطلبه .

لا يبدو أن السيد جبريل قد اقتنع تماما بالأمر ، لكن ما بيده حيلة ، طلب من السيدة زبيدة أن تسمح لي بمراقبتها ليوم كامل ، فأذنت بذلك ، لاحت بذهني فكرة واحدة و أنا أفحص حركاتها ، و أنينها كلما قامت أو قعدت ، إلّا أنها بدت فكرة بعيدة الاحتمال ، تأكدت منها لمّا رأيت الاحمرار في مفاصل جسمها كله ، الكاحل ، الركبة و المعصم . عندما أخبرتُ السيد جبريل شكّ في صحة قولي :

- لكن مرض النقرس يا ناردين يصيب الرجال أكثر مما يصيب النساء

- أعلم ، غير أنّ بعض الكتب تقول أن المرأة إذا وصلت سنّا معينة و كان من عاداتها أكل اللحم كل يوم ، اصيبت بمثل هذا المرض الذي يصيب قليلا جدا من النساء .

لاحظت صمته الذي يوحي بأنه يقتنع بكلامي فواصلت :

- ساعمل على تخفيف الألم باستعمال كمادات منقوع الزنجبيل، ما رأيك يا سيدي ؟

- نعم...سيخفف هذا من تورم مواضع الألم ، ابدئي بذلك و سنرتب لها قانونا من الأشربة و العقاقير... بما أنّك قد بدأت معها فالأفضل أن تنهي ذلك بنفسك، لا تتركي الأمر للآسيات.

لم أجد من السيدة زبيدة أي اعتراض على ما وصلت إليه بل إنها أمرت جواريها أن يساعدنني في تحضير ما احتاجه و تسهيل دخولي و خروجي من القصر ، كانت بحق تصغي إلى كل ما أقول و تعمل به ، سألتها في إحدى الأيام إنْ كانت تشك في قدرتي على علاجها ، فأجابت :

- إنّ المرأة ليست أقلّ عقلا من الرجل ، و لا أدنى منه معرفة، و المرأة الذكية مثلي تتعرف على مثلك يا ناردين ...

- ألا تخافين يا مولاتي أنْ تعالجك برمكية ؟

افترّ ثغرها عن ابتسامة واسعة ، نظرت إليّ جيدا ثم قالت :

- ما حدث بين الخليفة و البرامكة سنّة من سنن السياسة . في السياسة لا اعتبار للدم و لا للصداقة ... في السياسة ثمّة هدف واحد و واجب واحد و حق واحد (حفظ الخلافة) ، قد يبدو الأمر غير منصف الآن ، لكنّ الناس ستعلم و لو بعد حين أنّ القرارات المؤلمة في السياسة هي الأكثر ضرورة...

ربما هي على حقّ ، ربما كان الذي حدث مجرد سنّة من سنن السياسة التي تتكرر في كل زمان و مكان ، الضحايا و الجلادون مجرد أحجار على رقعة الشطرنج كلهم تحت رحمة السياسة ... ربّما يتوجّب علينا نحن أن لا نحكم على الأمر من الداخل ... علينا أنْ نغادر هذه الرقعة و ننظر من بعيد ...

كان معلمي إسحاق أكثر الناس ابتهاجا بتحسن صحة السيدة زبيدة ، فقد أوصت بمعلمي خيرا و نبّهت بضرورة إعلاء شأنه داخل البيرمستان كما أنها منحتني من المال ما لم يسبق لي أن رأيت من قبل ، لكنني أثناء بقائي هناك كنت أفكر في كلام صهيب (لا تثقي بالمعلم !!!) تفاجأ معلمي و أنا أضع المال كلّه بين يديه ، نظر إليه مليّا ثم قال :

- هذا المال لك ... فلم تعطيني إياه ؟

- المال ليس حاجتنا ، أليس كذلك ؟

- فما حاجتك إذا ؟

لم أدخل قصر الخليفة لأن معلمي أمرني بذلك ، أو لأنه يريد التقرّب من الرشيد عن طريقي ، على الأقل لم يكن ذلك هو الهدف الوحيد ... إذا كان الآصفي سيموت على أيّ حال فتلك مشيئة الله ، و ليس في مقدورنا نحن أن نمسك الروح عن أجلها ، و لكن في مقدورنا أن نختار على أي وجه ستفارقنا ، هل ستفارقنا عفيفة شريفة كما عاشت ؟ أم سيلحقها العار و الهوان فتتمنى لو أنها خرجت من الدنيا قبل ذلك ؟ الأسئلة التي أحملها للآصفي ستدفن معه على الأرجح ، لكنني سأحرص أيضا على أن أدفن معه أكثر من تلك الأسئلة ، عاراً يلحق اسمه إلى الجحيم .

****

الأيادي القذرة غير مرئية ، مخفية على الدوام ، مستورة عن أعين الناس ، إلا أنّ لها آثارًا لا تمّحي، مهما حاولوا تبديدها تبقى دليلا على دمامة ما اقترفوا من آثام ، يكفينا فقط أن نفتّش عن تلك الآثار و هي بدورها ستقودنا إلى قذارة أصحابها . كان عليّ أن أعود إلى تلك الحدود من جديد ، لا لأتجاوزها بل لأتجاوز الخط الفاصل بين الوهم و الحقيقة ، أنا

متسمرة على جانب ما ، فإمّا أنْ أعبر من الحقيقة نحو الوهم فيترسخ إيماني بمعلمي أكثر ، أو أعبر من الوهم إلى الحقيقة و في تلك الحالة ... لا أعلم أيّ الجانبين ساختار !!!

بحثت عن الآسية أميمة في كل أرجاء البيرمستان بحثا حثيثا ، حين رأيتها ، نأيتُ بها جانبا ، و وضعتُ يديّ على يديها ، شددت عليها فارتبكت و سألتني :

- ما بك يا ناردين ماذا هناك ؟

- هل تذكرين النخاس الذي اشتراني ثم مات ؟ ... أريدك أن تأتيني بإحدى جواريه أو خدمه

- النخاس !!! ما الذي ذكّرك به الآن ؟

لم يكن لدي الوقت و لا الصبر لأسئلتها فوضعت قدرا من المال بين يديها ، فزعت لمّا رأته و أعادته على الفور :

- حسن ... حسن سأفعل لكن دون هذا ...

في الغد استدعتني الآسية أميمة إلى حديقة البيرمستان وهناك تحت شجرة الصفصاف ، كانت بانتظارنا فتاة سمراء تكبرني ببضع سنوات تقف بدلال تحدّق بالغادي و الرائح في قلة اكتراث ، أشارت أميمة إليها ثم تركتني و ذهبت ، لم يكن

لديّ الوقت للتعارف لذلك بادرت بالقول و أنا ألوّح بكيس صغير من المال أمام عينيها :

- إذا أجبتني عن أسئلتي كلّها كان هذا المال لك

اتسعت عيناها و التمعتا مأخوذتين بهذا القدر الكبير من المال الذي لم تره في حياتها أبدا ، هتفت :

- اسألي يا سيدتي ...اسألي .

- سيدك النخاس الذي توفي منذ أكثر من أربع سنوات ، هلاّ أخبرتني كيف مات ؟

- آه سيدي – رحمه الله - ... المسكين وجدناه في غرفته صباحا ممددا على الأرض ، لم يكن مريضا و لا معتلاً و لكنّ أجله كان قد حان ...

- هل دخلت غرفته ؟

- نعم أنا و بقية الجواري كان منظره مفزعاً...

- هل كانت هناك رائحة غريبة ؟ أقصد رائحة عطرة زكية شيء غريب لم تعتادي عليه ....

- رائحة عطرة !!! لقد كان سيدي يحب رائحة البخور لذلك تملأ غرفته روائح عطرة طيلة الوقت ...

اصابتني خيبة أمل و أحسست أنّي رجعت إلى نقطة البداية ، أعطيتها المال و هممت بالذهاب ، لكنها هتفت :

- آه ...تذكرت ، كانت غرفته في فوضى عارمة ، الأواني النحاسية على الأرض و الزجاج المكسور ... رغم أننا جميعا لم نسمع شيئا في تلك الليلة ...

رددت في نفسي :

- لم تسمعوا شيئًا !!!

ذكّرني كلامها بما قاله الناس عن مقتل أولئك الرجال الذين وجدوا غارقين في دمائهم خلف أبواب موصدة تحرسها ألف عين ...لم يسمعوا شيئا .. ها أنا أغوص مجددا في الماضي ، تفتح الذكريات أبوابها ، لها صرير تنخلع له القلوب تضخّم الألم ....

الألم يورث الكره ، ينمو، يترسخ و تكتمل ملامحه كجنين في رحم الألم ، عندما يخرج للنور ليس بامكانك أن تدّعي أنه بشع الملامح ، فالألم الذي ولّده كان أبشع ، الناس لا يرون سوى ذلك السخط الذي يلفحهم هم ، يا لهم من أنانيين ! إنهم لا

يشعرون بالوجع الذي يستعر فينا ...لا يعلمون أن ما لفحهم ليس سوى ألسنة النار التي نحيا فيها كل يوم و كل ساعة . إنهم لا يعلمون أن أصواتهم القادمة من ندى الجنة هي أكثر ما نحتاج و أشد ما نخاف ، نحن - المنبوذين في الجحيم - :

- أريد أن أكلمك .

وقف صهيب بيني وبين الباب المؤدي إلى خارج البيرمستان ليس بي طاقة للكلام بعدما سمعت من تلك الفتاة إنه اليوم الثامن عشر من الجفاء، وجهه مكتظ بالحنق والغضب و الاستياء ، و كذلك الشوق ... الكثير منه ، من أين لي كل هذه القوة في دفع حبه بعيدا ؟ هل كنت بلا قلب ؟ ربما .... لكنني أحمد الله أنني لم أكن بلا عقل ، و إلا كنت ضممته إليّ أمام الملأ و لعنتُ كل شيء ، حتى رائحة الآصفي على صدره ، و نظرة الآصفي في عينيه ، و دم الآصفي في عروقه . نهرني عقلي عن هذا فحركت قدمي لأتجاوزه نحو الخارج ، تسمّرت في مكاني و أنا أسمع كلماته :

- والدي يريد رؤيتك .

وجدتني أنظر إلى عينيه مباشرة ، سألته :

- أنا ؟

فاجأني طلبه فآخر مرة رأيت فيها الآصفي كانت منذ يومين ، عندما أعلن رئيس البيرمستان أن المعلم إسحاق هو الذي سينصّب نائبا للرئيس ، استشاط الآصفي غضبا و اتهم الجميع بالتآمر عليه ، كان جسده يرتجف ، و يداه المرتعشتان تلوحان في الفراغ ، بدا ضعيفا كأسد مسّن يزأر فينجلي ضعفه أكثر ، لقد أوصت السيدة زبيدة نفسها بهذا الأمر و لن يتغير شيء ، التفتُ إلى معلمي و تفحصت وجهه ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة انتصار ، كان منتشيا بمنظر الآصفي المزري أكثر مما كان منتشيا بفرحة منصبه الجديد ، قاطعه قائلا :

- فلتهدأ يا آصفي لقد انتهى الأمر الآن .

- هل تظن بأنني ساسكت ؟ كلا ، الجميع هنا لا يعرفونك كما أعرفك أنا ، فأنت لست أهلا لهذا المنصب .

فتح المعلم إسحاق ذراعيه على اتساعهما و استدار نحونا متحديا إياه :

- لم لا تخبر الجميع إذن ؟ أخبرهم بما تعرفه .

عضّ الآصفي على شفتيه و كأنه يحاول ابتلاع شيء سيندم كثيرا إذا لفظه ، التفتَ يمينا و شمالا فأدرك حجم البلبلة التي أثارها بين الأطباء ، لا أدري لِمَ رمقني بتلك النظرة قبل أن يعود إلى مكانه ؟ لم تكن نظرة ازدراء كما اعتدت منه إبدا

أنه يريد قول شيء لي ، شيء له علاقة بنا نحن الثلاثة ، ألهذا يطلبني الآن ؟

سرت إلى جانب صهيب في خطى بطيئة تعمّد كلانا أن تكون أبطأ من خطوات طفل ، يحق لنا أن نسرق من هذا الزمن اللعين الذي ينزلق بنا نحو مصير مجهول بضع خطوات من الحب الخالص ، كنا بحاجة إلى ذلك الصمت الذي باح بكل شيء : الشوق ، العتاب ، الاعتذار ..مَنْ منّا نحن الاثنين أحق بالاعتذار ؟ ابن القاتل البريء أم ابنة المقتول الآثمة ؟ آثمة أنا بالقدر نفسه حين أتمنى قتل الآصفي بيدي ، أتمنى لو أراه ينزف أمامي ، يتوسل و يطلب الحياة هكذا تخيلت نهايته في سرّي حاولت أن أثبّت تلك النهاية عدد الليال التي فصلت بيننا دون جدوى ، كانت هذه الخاطرة تنكمش و تنكمش حتى تختفي أمام وجه أبي الغاضب :

- لست بأحسن من الآصفي إذًا .

- إنّه السبب في قتلك يا أبي... لقد أخذكم مني .

- لله ما أعطى و لله ما أخذ .

على الأرجح أنّ الله أشفق عليّ ، علِم بأنني أضعف من أن اقتل أحدًا ، فقدّر على الآصفي مرضه ، أحيانا لا يجب أن نعترض طريق القدر ، يكفي أن ننزوي ، نراقب و ننتظر

لكن الانتظار صخرة عظيمة لا تقوى كل الظهور على حملها ، يحتاج الأمر إلى أكثر من ظهر قوي ، إنه يحتاج إلى قلب قوي طافح بالإيمان ، هذا ما ميّز أبي ، كان مؤمنا ، فيما تزعزع إيماني كثيرا حتى صرت أنكر على نفسي هذه الأفكار البشعة التي تخثرت في أعماقي ، و صارت تكدّر روحي ، أيقنت كم صارت ذميمة و قبيحة مع أول ابتسامة لصهيب ، كيف لا ؟ ألا ينجلي الجمال الحقيقي أمام القبح السافر بإشراقة من ابتسامته. تسللت مني نظرة باتجاهه . تأملت زاوية فمه التي تقوست نحو الأسفل ، أدركت حجم الجريمة التي ارتكبناها بحقه نحن الاثنين – أنا و الآصفي – نكست راسي حسرة و مشيت في صمت ، انتبهت إليه يتوقف فتوقفت ، قال :

- وصلنا

رفعت بصري نحو منزله القائم أمامنا ، كان أقرب ما يكون إلى قصور الوزراء و الأثرياء ، حراس عند الباب ، و حديقة مبهجة (يقف العلم عاجزا أمام قدرة المال على إبهار الناس) كان معلمي على حق... مشى صهيب خطوتين ثم توقف ، استدار نحوي فغطت قامته المديدة كل شيء خلفه سالني :

- هل لي ان أطلب منك معروفا يا ناردين ، سيكون على الأرجح آخر معروف تصنعينه لي؟

نبرته الحزينة أوجعت قلبي فهمست :

- أطلب ايّ شيء .

- ايّاً كان ما اقترفه أبي بحقك ، و ايًّا كان ما تريدين أنت اقترافه بحقه ، عديني بأمر واحد : عندما ينتهي كل هذا عودي إليّ .

-....................

- لقد سبق أن خسرتُ المعلم إسحاق و لا أريد خسارتك... أنا لستُ مثل الآصفي فلا تكوني مثل إسحاق

ندّت من عيني دمعة حارة سالت على خدي و لم أجب بشيء ، واصل :

- أعلم انك بعيدة عني تتخبطين في ظلام الماضي ، لا اسألك الدخول ، لكنني هنا أمدّ يدي إليك أسألك الخروج ، فهات يدك يا ناردين .

مدّ يده في محاولة أخيرة لاستمالتي ، أو ربما لإبعادي عن رؤية والده ، يخاف من سماع ما يجب سماعه ، من يحتاج

لسماع الحقيقة إذا كانت بهذه البشاعة ؟ أنا... أنا أحتاج إلى سماعها قد تكون هي النهاية بالنسبة لصهيب ، لكنني أريدها بشدة ، لا يمكنني مواصلة العيش بقلبي وحده هكذا خلقت . غياب القلب يخلف الكثير من الجراح أمّا غياب العقل فيخلّف الكثير من الندم ، بإمكانك أن تحيا بندوب في القلب و ليس بإمكانك أن تحيا لساعة في جوارالندم ، أأخون دم عائلتي وأبيعه بنبضة قلب ؟ مددت كلتا يدي و قبضت على كف صهيب لأعيدها إلى جواره ، قلت :

- الوعود غالبا ما تخوننا ، فقط الصدفة هي التي تمنحنا فوق ما نستحق .

فهم صهيب أنني أريد رؤية والده مهما كانت النتائج فتقدمني نحو المنزل ، عندما دلفنا قادني إلى غرفة معزولة عن بقية أجزائه ، طرق الباب فتناهى إلينا صوت الآصفي يدعونا للدخول ، كان مستلقيا على فراشه ، صدره يعلو و ينخفض ، و أنفاسه متقطعة ، إنّه يحتضر. حاول الجلوس عندما رآنا فساعده صهيب على ذلك ، نظر إليّ فنظرت إليه ، اردته أن يعرف أنني سعيدة برؤيته على هذه الحال ، و إن كنت غير قادرة على قول ذلك أمام صهيب ، قال بعد أن هدأ سعاله :

- دعنا وحدنا يا بني

- اريد ان اعرف يا ابي ...

صاح الآصفي فارتجف جسمه كله ، خشي صهيب عليه فرضخ لطلبه و أغلق الباب وراءه ، التفت أخيرا إليّ و قال :

- أخبرني صهيب أنه يريدك زوجة له ، هل تعلمين بم أجبته ؟

- ....

- إنّها لا تصلح لك ، فهي ابنة الشيطان .

- هل هذا ما قلته للناس لينقلبوا على والدي و يقتلوه (شيطان)؟

- الناس لا يختلقون الأكاذيب فوالدك هو من ترجم كتاب السموم فليس بعيدا إذن أن يقتل أحدا بما يحوزه من معرفة ، كل مَنْ في البيرمستان يعلم هذا

- على الأقل ليس المعلم إسحاق منهم ...

ابتسم الآصفي و هزّ راسه :

- طبعا ... ستدافعين عنه ، ألست ابنة الشيطان ؟

صرخت في وجهه :

- كلانا يعلم انّ ابي لم يقتل احداً ... أبي لم يكن شيطاناً .

ـ أنا لا أتحدث عن والدك ... أنا أقصد الشيطان الذي ربّاك .

استغرق الأمر مني هنيهة قبل أن أعي مَنْ قصد بكلامه ، قلت و كأنني أستبعد ما أفكر فيه :

ـ المعلم إسحاق !!!

اتسعت ابتسامته أكثر لمّا ادرك أنّ هذا الخاطر لم يكن جديدا تمامًا عليّ ، فقد سبق أن طرق ذهني ، ردّ بثقة :

ـ لا بدّ أنك قد فكرت في هذا من قبل ، كلانا يعرف إسحاق جيدًا و كلانا يا ناردين رأى له أكثر من وجه ، فقط أولئك الذين عاشوا معه و طرحوا الأسئلة يعرفون من هو إسحاق ...

تلاحقت الصور في ذهني سريعاً ، تراءى لي إسحاق المعلم الذي أنزلني قلبه قبل بيته ، وفتح لي عقله و ذهنه فكان العزاء و السلوان الذي وهبه الله لي في فجيعتي ذات ليلة ، قد يكون رجلا عصياً على الفهم ، لكنه ليس عصيًا على الحب! لقد أحببته كما أحببت أبي ، و تعلقت به حتى صار كل ما أملك ، أمّا هذا الكلام فليس جديدا عليّ ، مَنْ يستطيع أن يُفلت من كلام الناس ؟ تلك السلطة التي تبسط يدها على بعضنا فتصوّرهم كيفما شاءت ، لم أهتم يوما بما أسمعه عنه ، لكنّ ما رأيته شيء يدفع للتأمل، أعرف جيدا وجه معلمي ، لكنني

أعرف أيضا أنه ليس وجهه الوحيد . واصل الآصفي التلاعب بأفكاري :

- لا يمكنني أنْ آمنَ جانبك ، كيف أزوّج ابني لمن تربت على يد إسحاق ؟ فلتبتعدي عنه ، أمام صهيب حياة يعيشها وليس في يدك غير الموت .

- أعطني المخطوطة و أعدك أنني سابتعد عنه .

احتقن وجه الآصفي بالغضب، فوجه لي صفعة قوية شجت شفتي واسقطتني ارضا وهو يصيح و يشتم بصوت عال جعل صهيب يهرع إلى الداخل فزعاً ، نظر إلى الدم على فمي ثم نظرإلى أبيه مستنكرا :

- أبي !!!!

- لن تحصلي على المخطوطة مادمت حيًّا ... أخرجها من هنا... أخرجها من بيتي .

تهالك الآصفي على فراشه بعد أن استنفذ غضبه كل ما يملك من قوة ، فأسرع صهيب نحوي و أسندني للخروج من هناك ، عندما ابتعدنا عن المَنزل قليلا سحبت ذراعي واستقمت محاولة أن أحافظ على ما تبقى لي من كرامة ، فاجأني صهيب بقوله :

- هل كانت المخطوطة التي تبحثين عنها مكتوبة باللغة السريانية ؟

- نعم ...

صمت قليلا و هو يقلّب في رأسه حجم الخسارة التي ستلحق بالجميع ، أغمض عينيه ثم قال :

- لا أعلم ماجاء فيها ، لكن قبل أن يمنعني والدي من متابعة تعليمي عند المعلم إسحاق ، دار بينهما شجار حول مخطوطة ما ، طالبه إسحاق بها لكن ابي نفى علمه بمكان وجودها ، مع أنني رأيته يحرقها بيديه ....

شهقت :

- احرقها !!!

- ...في ذلك الوقت لم أكن أتقن السريانية جيدا ، لكنني تمكنت من قراءة كلمة واحدة (تفاح الجن) .

- تفاح الجن !!! ما هذا ؟

- إنها نبتة طبية نادرة ... كيف لا تعلمين و أنت تلميذة إسحاق ؟

- هل يعلم إسحاق بشأنها ؟

- طبعا فالمخطوطة كانت تتحدث عنها بالتأكيد

لم يكد صهيب يكمل كلامه حتى وجدت نفسي أهرول نحو البيرمستان ، دلفت إلى مكتبته ، و أخذت أبحث عن كتاب يتحدث عن هذه النبتة التي لا أعلم لأي سبب لم يُشر إليها معلمي في أيّ حلقة من حلقات درسه حول الأعشاب الطبية. تزاحمت الأسئلة في راسي: لماذا يُقتل أبي من أجل مخطوطة حول عشبة طبية ؟!!! و لمَ لمْ يخبرني معلمي عما جاء في المخطوطة و قد سألته من قبل و أنكر معرفته بها ؟ ثم كيف لنبتة كهذه أن تتسبب في شجار بين الآصفي و إسحاق ؟ ... لا أعلم كيف قفزت إلى ذهني تلك الكلاب التي كان معلمي يأخذها معه في كل رحلة فلا تعود عندما قرأت عبارة تقول : (....وتفاح الجن لدى اليهود هو اللفاح و هواشبه ما يكون بالإنسان في تكوينه ، مقدّس كتقديسهم للروح البشرية ، فإنْ وجبَ اقتلاعه من باطن الأرض وجب أن تقتلعه غير يد البشر) ، تنهدت و أنا أتخيل معلمي يربط تلك الكلاب إلى النبتة ، فتقتلعها بدلًا عنه ، فقط اليهود يؤمنون بأنّ هذه النبتة تقتل كل من يقتلعها ، لذلك يستعينون دائما بحيوانات تنوب عنهم في هذا و يتركونها تموت ...تماما كما ماتت كلاب معلمي !!!

الشمس تكاد تغيب و نورها بدأ يخفت شيئا فشيئا هنا وينسحب هاربا عبر نوافذ المكتبة الزجاجية ، فتطغى النسمات الباردة الأولى للمساء على الدفء الذي ولّى بأفولها، كل هذا لم يثنني عن قراءة المزيد ، مع كل ورقة ألمسها يرتعش جسمي أكثر ، و تتسارع نبضات قلبي و أنا أرى هذه النبتة بأطرافها الأربعة و رأسها الصغير الذي يشبه الإنسان تماما كما رأيتها في تلك الليلة المشؤومة على مخطوطة أبي، لكن بدلا من كل تلك الأسئلة التي أحاطت بي ليلتها ، الآن تحيط بي الإجابات و أنا أقرأ عبارة خطّت بأدنى الصفحة (و قد ذكر اللفاح في التوراة أكثر من مرة ، لطيب رائحته الزكية ، إلا أننا نحذر منه لأن هذه الرائحة تصيب الإنسان بالصمم) ،رددت (تصيب الإنسان بالصمم .... لم يسمعوا شيئا !!!)

هي رائحة الموت إذًا، نكّست رأسي و وضعته بين يديّ .. صداع رهيب يكاد يفتك به ، تزداد حدّته كلما أخذت أنسج وجها جديدا لمعلمي جمعت فيه كل الخيوط التي كانت فيما مضى لا تعني شيئا ، ربطت بين كل ما رأيت و سمعت ، استرجعت قول جارية النخاس :

-.... لكنّنا لم نسمع شيئا ....

في حلكة الليل نحن مدينون لنور القمر ، وحده يبدد الظلام الدامس الذي يجثم على صدورنا فيبعث فيها وحشة و رهبة

يشملنا بهديه و يلفنا بعنايته ، من مكانه يراقبنا و يرشدنا ، يكفينا أنه باق معنا في مسيرة الليل الطويل ، كنت على يقين أنّ المعلم إسحاق هو ذلك القمر الذي لا أريد أن أنهي مسيرتي دونه ، حتى لو اضطررت إلى تكذيب كل الناس ، بمن فيهم أنا ، ربما كان رجلا باردا و مزهوا بنفسه ... لكنه بالنسبة لي كان الأب الذي أحبّني كابنته ... فهل أنا ابنة الشيطان فعلا ؟

- أنت هنا !!!

فاجأني صوت المعلم إسحاق الذي وقف بعيدا ينظر إليّ باستغراب :

- لم تأت إلى المنزل فقلقتُ عليك ... هل كنت هنا ؟

حملت الكتاب و أعدته إلى مكانه و أنا أصطنع ابتسامة غبية على وجهي ، أجبت :

- نعم كنت أقرأ كتابا و لم أنتبه للوقت .

- هذه الكتب ستفسد عقلك يا صبية ... هيّا فقد تأخر الوقت .

- حسن

قلت ذلك واقتربت منه، و في غفلة مني لاحظ شفتي المتورمة ، فوضع يده على ذقني و رفع وجهي إلى أعلى سألني:

- من فعل هذا ؟

ضاعت الكلمات مني و لم أوفق إلى كذبة تنقذني من هذه الورطة ، فأنا لم أعتد الكذب عليه ، لا سيما إذا كانت عيناه الضيقتان تخترقان عيني مباشرة ، سقط مني اعتراف :

- الأصفي هو من فعل هذا .

- هل جاء إلى البيرمستان اليوم ؟ لم أره .

- هو لم يأت إلى هنا ، أنا منْ كنت عنده يا معلمي .

حدجني بنظرة شك قائلا :

- لماذا ؟

- ....

امسكت راسي و تظاهرت بالوهن ، كنت أعلم انّ المعلم إسحاق لن يكفّ حتى يعرف كل ما دار بيني و بين الأصفي لكنني لم أكن مستعدة لأجيبه ، كيف أخبره و قد قادني كلامه

إلى هذا الشك الذي ظلّ يكبر مع كل كلمة قرأتها عن تفاح الجن ؟ لا ، لن أخبره بشيء حتى أعرف أيّ الرجلين هو الكاذب .

شغلني التفكير عن النوم ليلا ، بتُّ الآن أرى كل شيء بوضوح ، مَنْ دخل بيوت السادة من كبار الدولة ، و قتلهم دون أن يتناهى إلى مسامع حراسهم صوت ، لا يمكن أن يكون شيطانا ... الشياطين لا تقتل أحدا ، إنّها لا تملك سلطة التنفيذ و لكنها تمتلك سلطة الفكرة ، و تلك فكرة لا تخطر إلا على بال شخص واحد ... أعلم الناس بالطب القديم و أسراره ...المعلم إسحاق ... فهل قتل والدي أيضا ؟

ربما لم أختر بداية القصة فأنا بريئة من كل ما سال فيها من دماء ، لكن النهاية الآن بيدي و أنا مَنْ سأختار على أي وجه ستكون ... عندما استيقظ معلمي في الصباح وجدني في انتظاره حتى نتناول فطورنا معا ، لم يمدّ يده إلى شيء ، بدلا من ذلك سألني :

- هل ستخبرينني بما جرى بينك و بين الآصفي ؟ ... هل أعطاك المخطوطة ؟

- لا ، لقد أحرقتها

ساد الصمت بيننا ، و حدّق المعلم إسحاق طويلا فيّ إنّه لا يصدقني فهو لا يزال يظنّ أنها مع الآصفي ... استشعر خطر اطّلاعي عليها ، إنْ عرفتُ ما جاء فيها انقلبتُ عليه هذا ما فكّر فيه ، صار لزامًا عليه التخلص منها ، أو ربما التخلص من الآصفي نفسه ، أعرف معلمي جيدا ، لن ينتظر يد الموت سيكون هو يد الموت في هذه الليلة ... قال :

- لن أستطيع الذهاب اليوم للبيرمستان،اذهبي أنت و تقصّي حال المرضى ...

عندما عدتُ مساءً كان لا يزال في غرفته ، ناديته إلى العشاء لكنّه لم يجب ، لا شكّ أنّه سيخرج هذه الليلة ، لم يعد يحتمل أكثر ... نفد صبره و تلك كانت فرصتي ... تدثّر بعباءته السوداء وحمل سلّته ، دعوتُ الله في سرّي أنْ يكون على عجلة فلا يتأكّد من مبخرته ، خرج ليلا و طلب مني أن لا أنتظره ، ودّعته ككل مرّة بابتسامة ابنة ، ودّعني كآخر مرة بقبلة أب ...

بالكاد أغمضت عيني، طرق عنيف على الباب جعلني أقفز من فراشي ، لم يمهلني الطارق بل تواصل طرقه دون انقطاع فهرولت حافية القدمين نحو الباب ، لم أكد أفتحه حتى دخلت السيدة عيديا تولول و تصيح :

- لقد قبض الحرس على المعلم إسحاق في بيت أحدهم... يا إلهي ...يقولون أنه كان يحمل خنجرا مسموما ... هل كان ينوي قتله ؟

حضنتني السيدة عيديا و أخذت تواسيني دامعة العينين.. اشتبكت أمانينا ، كلنا نصلّي لسلامته، لكن لكل منا سببها . تريد جارها حيًّا و أريد قاتل أبي حيًّا ... اردته انْ يغلق آخر باب في غرفة ذكرياتي عن تلك الليلة : لم قتل أبي ؟

انتشر الخبر في البيرمستان كما تنتشر النار في الهشيم وُجد الآصفي غارقا في دمه و على رأسه المعلم إسحاق ؟ كيف ؟ لماذا ؟ لم يكن في مقدور أحد الجزم ...في تلك الليلة استيقظ سكان المنزل على صرخة عالية للآصفي عندما دخلوا وجدوا المعلم إسحاق هناك ، في يده خنجر وعلى وجهه الذهول ، لم يتوقع أنْ يسمع أحد صراخ الآصفي ، كان يظن أنّهم لن يسمعوا شيئا حتى و إن ملأ الآصفي السماء صراخا ... لكنهم سمعوا ، بقيت عيناه معلقتان بالمبخرة و الحرس يسوقونه خارج المنزل ، على الأرجح رغب برؤيتي في تلك اللحظة كما رغبت أنا برؤيته أيضا ....

- لا اريدك أن تذهبي إليه . قال صهيب غاضبًا

- عليّ أنْ أذهب ..سابقى دائما عالقة في الماضي إذا لم أره لا أريد أن ينعت الناس أبناءنا بأولاد الشيطان ...

لا يُسمح لأحد بزيارته ، لكنّ معلمي قال لي ذات مرة : (السند في بغداد هو السلطة) لذلك كان من البديهي أن تساعدني السيدة زبيدة على ترتيب موعد لزيارته ... اتجهت إلى غرفته ، حملت له بعض الثياب و الكتب ، كان خاتمه الذهبي ذا الفص الأزرق فوق الطاولة لطالما لازمه ، من غير اللائق أن يبقى دونه الآن...

استطعت أخيرا زيارته في السجن ، كان في إحدى الزوايا متكورا على نفسه من شدة البرد فالرطوبة هنا لا تحتمل! دنوت منه فرفع بصره نحوي ، ضيّق عينيه و هو يحاول التأكّد من الشخص الواقف أمامه ، بادرته و أنا أضع أشياءه بجانبه :

- أبي كان يعلم بأنّك تستخدم تفاح الجن للقتل ، هذا ماورد في المخطوطة التي كتبها ، أليس كذلك ؟

مدّ إسحاق يده نحو خاتمه الذهبي ، تأمّله قليلا ، ثم قال :

- لم يكن يعلم و حسب ، كان سيرسلها إلى هارون الرشيد نلك كان سيفضح كل شيء ، أنا و الآصفي كنّا سنقتل ، لقد حافظنا على حياتنا ليس أكثر

وضع خاتمه الذهبي في خنصره و واصل :

- ما الذي وضعته في المبخرة يا ناردين ؟ لم يكن مسحوق تفاح الجن فما كان ؟

- أعشاب عطرية تشبه عطر تفاح الجن لكنّها حتما لا تسبب الصمم ...

ابتسم إسحاق و أسند راسه للجدار :

- لا عجب أنّ الحراس قبضوا عليّ قبل أنْ أتمّ عملي... لكنّني فخور بك يا ناردين ، على الأقل اثبتّ أنك مثلي ...

- كلا ، أنا لم اقتل أحدا ، أنا لست مثلك يا إسحاق ... أنت من قتلت الآصفي ، و أبي و غيرهما الكثير ، أمّا أنا فلا .... سأتزوج صهيب و حين ننجب ولدا سنحرص على أن لا يناديه أحد بابن الشيطان ...

- بلى ... قتلتِ يا ناردين ...

قال ذلك و نزع فص خاتمه الذهبي و وضعه في فمه ، أخذ يلوكه و هو يقول :

- إذا أخذت مسحوق تفاح الجن و عجنته بعصيره فستتكون لديك كرة صغيرة بحجم فص الخاتم فيها من السم ما يكفي

لقتل خمسة رجال ، احرصي على تغليفها و بقائها معك دائما.
ارأيتِ ... ها انت تأتينني بالموت إلى هنا يا ناردين

جحظت عيناي و تسارعت نبضات قلبي و أنا أرى معلمي يأكل السم الذي أتيت به دون ان أدري ، ابتسم قبل أن يغلق عينيه :

- أنتِ اخترت أن تكوني مثلي .... و أنا اخترت أن أكون شيطانا ....ربّما تندمين الآن ...لكنني لا أندم على شيء.

انتهى في 2016/08/11

الساعة: 16:16



تفاح الجن

إذا كانت تفاحة (حواء) هي التي أخرجت (آدم) من الجنة؟

فماذا فعل (تفاح الجن) بـ(دنانير) البرمكية وهي تعيش صراعًا متأزمًا بين حبٍّ من قتل أبيها، والانتقام منه، في جو مشحون بالمؤامرات، مشتعل بالدسائس، غارق في لُجة الصراع بين (هارون الرشيد والبرامكة).

قضايا كثيرة حملت غواية السؤال، تُجيب عليها بصدق وبراعة فصول هذه الرواية، وهي تقتحم الذاكرة العربية التاريخية، تكشف ما غاب عنها وما أغفله (دواعي) السياسة في عصر (الرشيد) من خلال تناول سلس، وشكل روائي مشوق، وسرد تاريخي موثق لأوراق الخلاف (الرشيدي البرمكي) بشفافية الباحث وشغفه للوصول إلى الحقيقة.

فما عليك –عزيزي القارئ- إن أردت أن تعرف أكثر، وتتوصل إلى سر تفاح الجن وأثره وتأثيره، ما عليك سوى أن تحلّ ضيفًا على فصول الرواية الممتعة بموضوعها الشيق، وتشرع أحداثها الزاخرة بكل ما يمتع النفس، ويعزز متعة القراءة، وشغف المتابعة حتى الوصول إلى تفاح الجن، الذي سيبقى لغزًا حتى تقتحمه برغبتك في معرفة كثير من القضايا والخفايا التي تشكل الكشف عنها سر نجاح الرواية بتقنياتها الفنية، وتمتع تناول موضوعها، وتألق إبداعاتها السردية.. السهلة والممتعة على حد سواء.


I.S.B.N. 978-977-6560-18-5



